

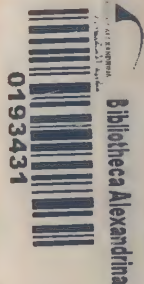
بَيْتُ بَطْوَلَة

مِثْرَارِيخ
هَارُونَ الرَّشِيدُ
والبرامكة

ترجمه عن الفرنسية

الاستاذ د. د.

طبع في مصر



بَيْتُ بَطْرُوطَه

مِثْ سَارِيحْ
هَارُونُ الشَّيْخِ
وَالْبَرَامِكَة

عن الفرنسية

الاستاذ د. د.

مكتبة

بيان وايضاح

أهديك أيها القارئ تحية وسلاما
وبعد فاني كتبت هذه الصفحات وما قصدت بها مهاجمة
أو دفاعا ولا أدعى أني جئت فيها بمجديد كان مجهولا .
يعرف جميع الناس هارون الرشيد وأخته العباسه
ووزيره المقرب جعفر البرمكي كما يعرف جميع الناس
تلك المأساة التي انتهت بنكبة البرامكة ولكن ما من أحد
يعرف الاسباب الحقيقية التي أدت إلى هذه النكبة وأنا
أيضا أجهل تلك الاسباب .

ولئن كنا نعرف جميعا هارون الرشيد والعباسه
وجعفر ونعرفهم تمام المعرفة بوصفهم أشخاصا دخلوا في
ذمة التاريخ إلا أن لهم نواحي لا نسبر غورها ومما يجعلها
بمنأى عن ادراكنا إن من المؤرخين من شاد بأعمالهم
ومنهم من تولاهم بالذم ظلما مزيفين التاريخ تبعا للأهواء .

ولقد أردت أن أستعرض تاريخهم في شكل جديد
وأضفي على اشخاصهم صوراً تلائم الافكار الحديثة
وتتفق والنفسية البشرية . وتوخيت تجريد التاريخ من
الخيال والزيف فهم كانوا كبار النفوس حقاً ولكنهم كانوا
أيضاً صغارها إذ كانت لهم عظمة الانسان وضعفه وكانت
لهم جاذبيته وعيوبه واخطاؤه وكل ذلك يبعث على
تقريب الشقة بيننا وبينهم .

إني ليعوزني حذق المؤرخين وقوة إقناع الفلاسفة
وفراسة علماء النفس . فمعدرة عما أكون وقعت فيه من
أخطاء . ولست إلا راوية متواضعة فاذا راعتك قصتي
التاريخية فحسبي من ذلك حظاً وسعداً .

وإني استميتك عفواً عن الاغلاط التي يحتمل أن
تكون في الكتابة أيها القاريء الكريم ؟

بنت بطوط

البحيرة في شهر رجب سنة ١٢٦٤

حضرة صاحبة العصمة النابتة النبيلة

بِنْتُ بَطْوَطَه

كتابك في « الرشيد » كتابٌ صِدْقٍ
هو التاريخُ رُدَّ الى الحقيقه
على أحداثه ارسلتِ ضوءاً
تغلغلَ في مهاوينا السَّحيقه
بأخذٍ عن ثقاتِ الرأي فيها
هَداكَ الى روابطها الوثيقه
فلم تُخْطِئْكِ فَهْمًا واعتباراً
مَرامِها الجليـلةَ والدقيقه
وكم مَنزَى خَفِيَ أَبْرَزَتُهُ
عبارتُك المصفاةُ الأنيقه

وَكَمْ أَحْجِيَّةٍ تَأْتِي حُلُولاً
 جَلَا لَكَ حَلَّهَا وَحَى السَّلِيْقَه
 تَكَادُ بِوَصْفِكَ الْأَنْسَارُ تَحْيَى
 وَقَدْ جَدَّتْ رَوَائِعُهَا الْقَتِيْقَه
 فَعَادَتْ مِثْلَهَا كَانَتْ قَدِيْمًا
 بِإِعْجَابٍ وَإِكْبَارٍ خَلِيْقَه
 رَعَى اللَّهُ الَّتِي كَتَبَتْ لِتَرْضَى
 بِنَفْسٍ حُرَّةٍ وَيدٍ طَلِيْقَه
 وَلِلْآدَابِ أَحْسَابُ غُـوَالٍ
 إِذَا اتَّصَلَتْ بِأَنْسَابٍ عَرِيْقَه

من تاريخ هارون الرشيد والبرامكة

أسرة بني العباس

١

حروب المبادئ - العلويون - الدعوة العباسية -
خاتمة الأمويين وانهيارهم - أسرة العباسيين - الخليفة المنصور
- تأسيس بغداد - الوزراء البرامكة - اصطباغ الامبراطورية
بالصبغة الايرانية - المالية والبوليس السياسى والضرائب -
السفراء الاجانب والمؤرخون - الخليفة المهدي - الدسائس -
الخيزران - الهادي واغتياله - فجر عهد هارون الرشيد .

كيف وصل العباسيون إلى أريكة الحكم ؟

ونحن إذ نتحدث اليكم عن العباسيين نرى من واجبنا
قبل كل شيء أن نستعرض الدسائس الدينية والسياسية التي
عجلت في نهاية أسرة عظيمة الشأن عزيزة الجانب ونحللها
عسى أن نحل عقدتها ، وإن كان نجم تلك الأسرة بدأ في
الافول وسلطانها قد أوشك على الانهيار. أما تلك الأسرة

فهي أسرة الأمويين وأما التي احتلت مكانتها فهي
أسرة العباسيين .

وإننا إذا حاولنا أن نرجع إلى أصل هذه الدسائس
الدينية والسياسية فقد نقدم على مهمة عسيرة بل شاقة
عقيدة لأننا قد نقع في أشد الافتراضات تناقضاً وأكثرها
تبايناً وينتهي بنا الأمر إلى طرق باب التقاليد التي كثيراً
ما يتلفها المحدثون ويشوهها الرواة بالتزييف والأكاذيب
ولأن مؤرخي ذلك العهد هم مداحون أكثر منهم
مؤرخين يطرون هذا ويتزلفون إلى ذلك من الملوك
والأمراء والمتخاصمين قد نفثوا سم أحقادهم أو تركوا
طابع تحمسهم القوي وميولهم الشخصية في الأحداث
التاريخية فشوهوا أصولها وأسبابها تشويهاً عجيباً تختلط
معه الحقائق بالآوهام فخلفوا لنا ذكرى حوادث هي
أقرب إلى الآوهام منها إلى الحقائق .

ورب سائل عما أثار هذه الأحداث إذ أنه منذ اغتيال الخليفة على عام ٦٦١ في مدينة الكوفة . أو منذ اغتصاب معاوية للحكم أو عدم اغتصابه له وقيام أسرة الامويين وإنشاء نظام الأوتوقراطية والحكم المطلق الجديد وهو في الواقع نظام قديم كالعالم . فان القتال كان سجالاً لم يكف لحظة واحدة ولم يهدأ أواره .

لقد كانوا يتقاتلون في سبيل على بعد مصرعه وفي سبيل نجليه حتى بعد مقتل الحسين في كربلاء وكانوا يتقاتلون ضد على في سبيل معاوية وضد معاوية في سبيل آل على وضد آل معاوية في سبيل سواه . لقد استمر القتال فيما بينهم زهاء مائة عام منذ فجر القرن السابع حتى أواخر القرن الثامن . ولسوف يتقاتلون دائماً أبداً وليس غير الله ليعلم السبب !. أما المؤرخون فانهم لم يقفوا على السبب قط ولن يقفوا عليه لأن المتقاتلين أنفسهم قد انتهى

بهم الأمر مع طول أمد القتال بأن نسوا لماذا كانوا
يتقاتلون أو في سبيل من يتقاتلون ١٩... وإنا الآن لتساءل
كذلك لم عساهم كانوا يتقاتلون ١٩

وذلك الشيء الذى كانوا يتقاتلون فى سبيله لم يكن فى
منشئه إلا نتيجة للدسيسة التى كانت تحمل تحت طياتها
رغبات فرد واحد أو أرادة زعيم واحد أو فى نفس
الوقت مطامع طغمه من الرجال أو أمانى فئة كثيرة من
الرجال يؤلف منهم شعب . قد يكون ذلك . ولكن مما هو
خليق بالملاحظة أنه إذا كانت شعوب ذلك العهد تستخدم
فى قتالها ذات الطريقة التى نقاتل بها اليوم فانها لم تجرد
السلاح لأمر يتعلق بالحدود أو بسبب يمت إلى الجنسيات
فلم تكن للإسلام آتشد حدود أو جنسيات مختلفة إذ لم يكن
هناك تمييز بين عربى ومصرى وإيرانى وهندى وتركى
فكلهم كانوا مسلمين على حد سواء . على أن الآراء فيما بينهم

كانت متباينة متضاربة . فكان القتال ينشب في سبيل
العقائد التي كانت تتحول عندهم إلى مبادئ . وكثيراً
ما كانت تلك العقائد تنبت تارة كالعشب الفاسد أو تزدهر
طوراً كالازهار النادرة على حد تفكير كل فرد منهم .

وإذن فإنهم كانوا يتقاتلون في سبيل العقائد أو في
سبيل عقيدة واحدة هي عقيدة الشيعة . وما الشيعة إلا
فكرة تولدت من فكرة أخرى . هي الانتقام ! ثم تطورت
تلك الشيعة حتى أصبحت طائفة دينية وانتهت بأن غدت
مع الزمن حزناً سياسياً لم يلبث أن امتد واتسع حتى صار
قوة عظيمة هائلة . كما أنها اتخذت حجة تدرع بها في
منتصف القرن الثامن عدد كبير من المضطهدين والمنبوذين
الأمويين وهم ان لم يكونوا من الشيعة إلا أنهم انضموا
إلى قضيتهم أملاً في شفاء غليل انتقامهم الشخصي .

أضف إلى هذا الانتقام المطالب التي تقدم بها أنصار

آل على أو العلويون للحصول على حقوق على في الخلافة وهي حقوق كان العلويون قد تنازلوا عنها ولكن أنصارهم استمروا في المطالبة بها . ولم يكفوا عن مطالبتهم بها لحظة واحدة منذ عهد معاوية ويزيد الأول .

أما العباسيون أي آل عباس بن عبد المطلب . عم النبي صلى الله عليه وسلم . فانهم قد استسلموا لمصيرهم . وسواء أكان استسلامهم عن اخلاص أو أنهم تظاهروا به عن رياء ودهاء فانهم لم يتظلموا من شيء فكانوا بذلك على نقيض العلويين يعيشون في عزلة تامة عن كل نشاط سياسي وكانت حياتهم بسيطة لا تعدو حياة العامة من الشعب . فكانوا أحياناً يقضونها في المدينة وغالباً في خراسان حيث احتجوا عن عالم السياسة فلم يمسوا سلامة أحد أو يضرُوا بطمأنينة البلاد .

وانتشرت الشيعة في خراسان انتشاراً سريعاً حتى

أصبحت أو آضت البلاد وكرا للمعارضة العنيفة . وكان
الأمويون فيها مكروهين بوجه خاص مع كثرة أنصار
العلويين . ولذلك كثرت الفتن والحروب الأهلية التي
كان شررها يتطايّر من خراسان فيندلع لهيب القلاقل
والاضطرابات في جميع أنحاء الامبراطورية الأموية .

وقد كان هؤلاء الانصار هم الذين ثاروا على
الامبراطورية الأموية وعملوا على دك صرحها . والعجيب
في ذلك أنهم لم يهدموها لصالح العلويين بل لمصلحة
العباسيين الذين كانوا لا يمتنون إلى قضيتهم بأية صلة .

فكيف وقعت تلك الظاهرة الغريبة ؟ هنا أيضاً تضللنا
التقاليد فاذا هي امتزجت بالخرافة والوهم فانها تجعل من
مزيج المستحيل والجمال والحقيقة سياجا تحوط به الوقائع
والاسباب لتقودنا صاغرين مشدوهين في ديجور تلك
الظلمة المدلّمة ثم تقف بنا أمام وقائع تاريخية لا تقبل

جدلاً أو نزاعاً ونحن خاشعون مستسلمون .

ففي أوائل القرن الثامن كان حزب الراونديين أظهر
'لاحزاب السياسية في بلاد فارس وخراسان وأشدّها
بطشاً . وكان الراونديون انصار محمد بن الحنفية أحد أنجال
الخليفة على . ويؤخذ من التقاليد ان الخليفة على عهد إلى
هذا الاخير بزمام سلطاته بصفته اماماً . وان أبا هاشم بن
محمد بن الحنفية قد عهد بتلك السلطات بدوره إلى على
حفيد عباس بن عبدالمطلب عم النبي صلى الله عليه وسلم .
وورثها عنه نجله محمد بن على بن عباس بن عبدالمطلب .

ولما كان انصاره في ذلك العهد أكثر نفوذاً فقد حرم
العلويون ولا سيما آل الحسين ^(١) أكبر أنجال الخليفة
على من حقوقهم لمصلحة أسرة العباسيين . وكان ذلك
فاتحة الدعوة العباسية . وفي مستهل حكم مروان الثاني آخر

(١) سيدنا الحسين الذي يوجد ضريحه في القاهرة

الخلفاء الامويين عام ٧٤٣ توفي الامام محمد بن علي خلفه .
نجله ابراهيم .

وفي عام ٧٤٤ كانت بلاد خراسان تتمخض باحداث
جسام بفضل بن معن وأبي مسلم الراوندى فهد الطريق
إلى الدعوة العباسية وكان ابن معن حاكم السند السابق
وعدو الخليفة مروان الثانى الذى لم يحسن الانتفاع
بخدماته ولا مكافأته بما هو جدير بمكاته . يتحين الفرص
للقيام بثورة ضد الامبراطورية . فقدم الكوفة وانضم إلى
الدعوة العباسية . ثم أضرم نار الثورة فى خراسان وجمع
أنصاره فى مدينة مرو ونادى بابراهيم خليفة وأميراً
للمؤمنين عام ٧٤٤ وهكذا أصبحت الكوفة مركزاً
لمعارضة تأوى أنصار العلويين الذين كانوا فى الواقع
يعملون لصالح العباسيين .

وفي عام ٧٤٥ توفي ابن معن فجأة فكانت وفاته

خسارة على العباسيين ولكن الامام ابراهيم أحسن اختيار
الرجل الذى تتطلبه الظروف فأرسل أبا مسلم الراوندى
إلى خراسان لمواصلة أعمال ابن معر فيها .

وقد وفق أبو مسلم فى حشد جيش من العرب
والايرانيين ورفع لأول مرة لواء العباسيين الأسود وأباد
الحملة التى كان الخليفة مروان الثانى قد جردها ضد الامام
ابراهيم المطالب بالخلافة . على أن هذا النصر لم يتوجه
نصر ثاب فقد هزم أبو مسلم بدوره بالقرب من الكوفة
بعد بضعة شهور واعتقل الامام ابراهيم وألقي فى السجن
بأمر من الخليفة مروان الثانى .

وأوشكت الدائرة أن تدور على العباسيين لو لم
ينج أبو مسلم بأعجوبة من مطاردة الأمويين . وقد تمكن
من الهرب وجمع أنصاره وحشد جيوشه ونادى بأبى العباس
شقيق ابراهيم الثانى خليفة على المسلمين فى الثانى عشر من

شهر ربيع الثاني عام ١٣٢ (٢٨ نوفمبر ٧٥٠) ولأول مرة في التاريخ ذكر اسم الخليفة العباسي في صلوات مسجد الكوفة الاكبر واستؤنف القتال بشدة وعنف لم يسبق لهما مثيل .

وعندئذ بدأ مركز الأمويين يزداد تخرجاً يوماً إثر يوم فغادر مروان الثاني حران على رأس جيش من السوريين في طريقه إلى الموصل لملاقاة جيش أبي مسلم . وهزم الخليفة الأموي شر هزيمة على الضفة اليسرى من نهر الزاب الاكبر في معركة ضروس دامت من اليوم الثاني من شهر جماد الثاني عام ١٣٢ (٢٨ يناير ٧٥٠) حتى اليوم الحادي عشر منه . فارتد مروان الثاني مع فلول جيشه إلى حران ومنها إلى دمشق خيفاً ثم إلى الفرما على الساحل المصري وتخطاها لاجئاً إلى الوجه القبلي بالقطر المصري تطارده جيوش العباسيين الظافرة . وفي تلك الجهة النائية

لقى آخر الخلفاء الأمويين حتفه وهو يزود عن نفسه إبان شهر أغسطس من عام ٧٥٠ فجزت رأسه وأرسلت إلى أبي العباس فدالت بمقتله دولة الأمويين العتيدة .

واستولت جيوش العباسيين على بلاد سوريا . سوريا المخلصة للأمويين التي حاولت أن تثور ولكن بغير ماجدوى إذ اخمدت ثورتها في بحر من الدماء الطاهرة ففي جميع مدنها وضع السيف في أفراد أسرة الأمويين وأنصارهم على حد قول الشاعر سديف :-

لا يغرنك ما ترى من رجال

إن تحمت الضلوع داء دويأ

فضع السيف وارفع السوط حتى

لا ترى فوق ظهرها أمويا



ولم ينج من المذبحة غير أموى واحد هو الفارس

المغوار عبدالرحمن الأول . فقد تمكن من الفرار ولجأ إلى
أسبانيا حيث أسس مملكة الأمويين الزاهرة في قرطبة .
أما مدينة دمشق العامرة مقر الامبراطورية الاموية
فقد عملت فيها أيادى النهب والتخريب وبالغ بنو العباس
فى استئصال شأفة بنى أمية حتى ابتزوا جميع أموالهم ونبشوا
قبورهم ما عدا قبري معاوية والخليفة التقي الورع عمر
الثانى بن عبدالعزيز .

وهكذا تربع بنو العباس على عرش مملكة من أعظم
ممالك العالم على حساب العلويين وبفضل الشيعة ودهاء
الراونديين وخبثهم .

لم يشأ أبو العباس أن يتخذ من دمشق مدينة الأمويين
عاصمة للملكة فقد فضل عليها الانبار وهى مدينة فارسية تقع
على ضفاف نهر الفرات حيث لقي حتفه مصاباً بداء الجدري
وهو فى الثلاثين من عمره أى بعد انقضاء أربعة أعوام على

ارتقائه العرش . خلفه شقيقه الثانى أبو جعفر عام ١٣٦ هـ

٧٥٤ م .

وأول ما أقدم عليه أبو جعفر الملقب بالمنصور بعد
أن أخذ نيران الثورة السورية بصورة وحشية هو
التخلص من أبى مسلم بارتكاب جريمة مخزية شنعاء !
فأف لها من مكافأة على اخلاص ذلك الرجل الذى
عرف كيف يدير قضية العباسيين بمهارة وحنكة ويقودها
إلى تلك الخاتمة الباهرة .

وما أن خلا الجو للمنصور بعد مقتل شاهد يضايقه
كأبى مسلم حتى قلب أوضاع النظم القديمة فى امبراطوريته
وأخذ ينظم أمور دولته طبقاً لأفكاره مستعيناً بأسرة
البرامكة الفارسية العظيمة التى أمدته بما كان يحتاج
إليه من المديرين .

وبدأت مع خالد البرمكى رئيس وزراء المنصور

سلالة الوزراء في الحكم . وكان عهد أولئك الوزراء فاتحة عهد استعباد ذهبي للخلفاء العباسيين إذ أنهم لم يتمتعوا من العرش إلا بظله ومن الملك إلا بصولجانه وتوجه إلى أن جاء هارون الرشيد ووضع حداً لسلطة الوزراء الواسعة بدافع من الحسد والعزة النفسية .

وقد اتخذت الخلافة طابعاً فارسياً بحثاً بمجى آل عباس إلى الحكم وكان إنشاء مدينة بغداد . وهذا الاسم من الالفاظ الفارسية البحتة فاتحة عهد جديد هو عهد صبغ الامبراطورية العربية بالصبغة الایرانية .

كانت مدينة بغداد وليدة نزعة من نزعات المنصور . فقد حدث في يوم من أيام عام ١٤٢ (٧٦٢) إذ كان الخليفة يسير على ضفاف نهر الدجلة ان راعه منظر حديقة زاهرة غناء رأي فيها أحد النساك يجنى ثمارها وأزهارها بهدوء وطمأنينة فاستقر رأيه في الحال على تشييد خلوة

للراحة والاستجمام فى هذا المكان الهادىء وأحاط الوزير
خالد البرمكى قصر مولاه الجديد بمدينة ساحرة تجلت فيها
عبقرية المهندسين الفرس ومواهبهم من خيال وابتكار
فابتدعوا تلك المجموعة المتناسقة من القباب الشائخة
والواجهات والاروقة والعمد التى أوصى بها اليهم من
الساسانيين المندثر . كما أنهم خلقوا هذا الطراز المهيـب
الدقيق حيث كان الرخام الملون والخزف المطلى
والفسيفساء وأشغال البرونز تتناسق وتمنـج بما امتاز به
الفن العربى من صناعة الاخشاب المخرمة فتمخض عن
أعتاب دقيقة وأقواس عظيمة لم تجار فى دقة صنعها
ولم تضارع .

وكان أولئك الفنانون الفرس ايضاً . مع ما يمتازون
به من حب للازهار . هم الذين وضعوا تصميمات حدائق
بغداد البديعة ونظموها بعناية حي بدت غاية فى الابداع

وحرصوا على أن تمتد على شكل قنن ومرتفعات متناسقة
وحددوا أحواض الوسين والقرنفل والياسمين والورد
حول الأكشاك الساحرة وأمام جداول المياه الساطعة
حيث تتلألأ نوافير البلور المنحوت .

ولسوف تبقى تلك الحداثق الغناء ذات الممرات
المفروشة بالفسيفساء المحاطة بأشجار السرو التي يتغنى بها
الشعراء محط إعجاب المسافرين ورجال الأدب والمؤرخين
فى ذلك العصر عهداً طويلاً .

لم تؤثر مدينة قديمة ، مع استثناء يزنطه ، خلال أجيال
عديدة على مخيلة العالم بأسره تأثير مدينة بغداد . ولسوف
تمتد شهرتها فتعم أوروبا . وإذ ذاك يتدفق عليها سيل
الغريبين مأخوذين بجماها وثقافتها الواسعة الضافية
ويسعون إلى مشاهدة تلك العاصمة الشهيرة .

وإلى جانب ذلك يجب علينا أن نذكر أن صبغ بغداد

بالصبغة الايرانية تدريجياً وبطريقة منتظمة مع تطورها
وازدهارها سوف يحول تيار الفكر العربى ويؤثر فى
عقليته تأثيراً يكاد يكون شاملاً .

ولسوف تبعث اللغة العربية وتخلد . ولسوف ترق
أساليب تلك اللغة وتلين عباراتها وتكتسب عذوبة ساحرة
باحتمكا كما بالفكر الفارسى ورقته السامية . ولسوف يتأثر
الأدب بأكمله وفى جميع نواحيه وتطورانه فيكتسب الشعر
العربى حساسية جديدة ويبدأ عصر رومانتيكى تظل ذكرى
نعومته عالقة بالاذهان مع الزمن . ولسوف تسير الثقافة
العربية الفارسية سيرها الظافر فتدرك قمة الكمال والمجد فى
عهد المأمون ثم تتخطى هذا العهد وذلك العصر الذهبى
حتى يسخر بها القدر ويأتى عهد تصطدم فيه ببرابرة المغول
فتزعزع أركانها وتقوض .

وقد عدل المنصور مختلف نظم الدولة متأثراً بنفوذ

البرامكة . فقد كان نظام البريد مثلاً قائماً منذ عهد الخليفة معاوية مؤسس الأسرة الأموية فهو الذى أنشأه ونظم إدارته فجاء المنصور العباسى وعمل على توسيع نطاقه وتعميمه إذ ألحق به نظام « البوليس السياسى الأعلى » .

فقد عهد إلى مديرى البريد فى الأقاليم بأن يوافوه فى كل شهر أو فى كل أسبوعين بل فى كل يوم بتقارير رسمية وسرية ليطلع عليها المجلس الخاص أو ديوان الخليفة الخاص ويقف منها على جميع وجوه النشاط السياسى أو الاجتماعى التى كان يديرها الخاصة والعامة فى جميع أنحاء تلك الامبراطورية المترامية الأطراف ويتسنى لها تلافى المؤمرات واكتشافها واحباط الدسائس وقطع دابرها وقد عظم نفوذ أولئك المديرين بطبيعة الحال واتسع نطاق سلطتهم فأصبحوا عمالاً خطيرين بفضل ما يتجمع لديهم من الاستعلامات واشرافهم على مجرى الحوادث

عن كتب بحيث كان حكام الاقاليم والولاة الذين كان الخلفاء يستبدلونهم خوفا من منافستهم وعلو شأنهم واتساع نفوذهم يحسبون لهم حساباً كبيراً ويتزلفون اليهم ليأمنوا شرهم لا سيما وأن رجال البوليس السياسى كانوا لا يخضعون لنفوذ السلطات المحلية بل كانوا تابعين للسلطة المركزية والديوان الخاص أى للخليفة نفسه .

قد تقولون أن هذا ضرب من ضروب الجاسوسية . أجل . ماهى إلا جاسوسية سياسية ابتدعتها أسرة للمحافظة على سلامة الدولة وكيانها إبان سيطرتها على امبراطورية مترامية الاطراف تقلب على عرشها ملوك من مختلف الأسر وتداولتها الايدى عن طريق المؤامرات والدسائس والمفاجآت المدهشة الجريئة . وأن وصول دولة العباسيين أنفسهم إلى الحكم خير مثال على ذلك . لم يكن العباسيون على شئ من الكفاءة الحربية ولكنهم .

على نقيض ذلك . كانوا يتمتعون بنزعة السياسة وموهبة الحرية القائمة على الخبرة على أنهم إذا كانوا قد استطاعوا أن يفرضوا احترام سلطتهم وسلطانهم بنفوذ حكومتهم وشدتها . فقد تمكنوا كذلك من توطيد دعائم ملكهم برجاجة عقولهم وحنكتهم التي ساعدتهم على إنشاء شبكة من مختلف أنواع التجسس وأوضاعه المتشعبة . وعلى الرغم من ذلك لم تكن تلك التدابير والاحتياطات في بدئها على شيء من الغلو أو الإفراط . وخلق بنا أن نعترف بذلك إلى أن جاء ذاك اليوم الذي تطورت فيه فأصبحت خطراً حقيقياً وهذا ما حدث فيما بعد فقد إتسعت تلك المراقبة لدرجة لم يستطع معها الخلفاء أنفسهم أن ينجوا من سيطرتها أو التحرر من سلطتها مما اضطر معه الخليفة هارون الرشيد إلى اتخاذ تدابير عاجلة غاية في الشدة للتحرر منها واسترداد حرية العمل .

وقد أنشأ البرامكة عددا من الدواوين المختلفة وعهدوا اليها بمراقبة التجار والمسافرين والأجانب الذين يدخلون البلاد ويغادرونها . ولم تكن تلك الدواوين إلا بمثابة « مكاتب لجوازات السفر » وهي نوع آخر من الاحتياطات السياسية فكانت الى جانب دورها السياسي تلعب دورا ماليا لتحصيلها رسوما على كل جواز يحمله الأجانب بدخول أراضي الامبراطورية على أنه قد استثنى من تلك القيود ضيوف الدولة والممثلين السياسيين للدول التي تربطها علاقات وثيقة بالامبراطورية .

ولم يكن التجار وحدهم هم الذين يفدون على تلك البلاد فهناك أيضا الفضوليون أو بتعبير آخر السياح . ولم يكن لهؤلاء السياح الذين كانوا يتقاطرون من كل حذب وصوب من جميع أنحاء العالم المتمدين هم إلا رفع أنوفهم باعجاب نحو الاثار الفاخرة والأشياء التي كانت نجعلها

بلادهم لدرسها والتعليق عليها ثم بعد ذلك وصفها في كتاباتهم وأخبارهم .

فتلك المراجع القديمة يونانية كانت أم لاتينية أو عربية التي لا ينضب معينها من مختلف البيانات والمعلومات لهي كثيرة الشبه بما نطلق عليها في عهدنا « صاحبة الجلالة الصحافة » .

إن المجتمع الانساني لم يتغير كثيراً منذ القرن الثامن أو ما قبله على أن رجال ذاك العهد كانوا يضعون كثيراً من الظرف واللباقة وسلامة الذوق والتأني في إنجاز ما يفعله رجال اليوم بتلك السرعة الرهيبة التي قد تخلو من بعض السحر وما ذلك إلا لأن رجال اليوم قد استعاضوا عن الوسائل الطبيعية والعادية بالعجلات والمحركات وجعلوا حياتهم أشبه بآلة ميكانيكية صماء . وذهبوا حتى إلى المتاجرة بمثلهم العليا أما عن روح النقد وقوة الملاحظة . والتعطش

إلى العلم والمعرفة . فرجال عهدنا لا يختلفون في ذلك كله
أيضاً عن رجال العصور الغابرة ولا يمتازون عنهم بشيء .
ولقد حان وقت لم يكن فيه من اللائق بالمرء أن يحسن
التكلم باللغة العربية ويجيدها فحسب . بل كان ذلك واجباً
عليه . ويقول المؤرخ الفرنسي « هيوارت » ، « HUART » فيما
كتبه عن تاريخ العرب أن الاقبال على اللغة العربية كان
كبيراً من الأجانب الذين كانوا يرغبون في استيعاب أصولها
والوقوف على أسرارها وأساليبها وطريقة التعبير بها
والتمتع بثقافة العرب وفلسفتهم وكانت قد بلغت في ذاك
العصر أوجها .

وفضلاً عن ملوك الصقليين ^(١) النورمانديين « الذين
كانوا يتكلمون لغة الكفار » ، ويطلبون إليهم خدمات
عالية جليلة . فاني سأورد لكم فيما يلي مثل مستشرق آخر

(١) مملكة الصقليين مملكة قديمة كانت تشتمل على صقلية وناپولي

مولع بالشرق هو ذلك الرجل الغريب الذي عاش في القرن الثالث عشر أعنى به فردريك الثانى حفيد الامبراطور باربروس أعظم ملوك الغرب منذ عهد شارلمان الذى ضم إلى الامبراطورية الرومانية المقدسة شمال إيطاليا وملكة آرل ثم مملكة صقلية .

فقد كان هذا القائد الجاحد العجيب للحرب الصليبية السادسة عدواً للإسلام على أنه كان فى الوقت نفسه مولعاً باللغة العربية إلى حد الجنون فقد أنشأ فى مدينة لوسيرا^(١) مدرسة كان العرب يلقنون فيها العلوم باللغة العربية . كما أنه جمع حوله علماء العرب والفلكيين والاطباء والموسيقيين

(١) لوسيرا — مدينة لوسيرا القديمة إحدى مدن مملكة نابولى فى مقاطعة « كابيتانات » وهى تقع على بعد ١٧ كيلومترا شمال غربى فودجيا ويبلغ عدد سكانها ١٢ ألف نسمة . وفيها أسقفية ومحملة عليا للجنايات ومحكمة مدنية ومدرسه ملكية ومكتبة وكاندرائية جميلة ومجموعات ثمينة من الأوسمة والتحف الأثرية وقد كانت مدينة السامنيين (Samnites) قديما ويقال أن =

منهم بل وقد اتخذ من العرب خدماً له .

ويقول لنا المؤرخ « روتلان » ، « ROTHÉLIN » أن
الامبراطور كان يستأنس بالكفار ويحبهم حباً عظيماً
بحيث أنه كان يختار من بينهم مستشاريه وخدمه .

وقد روى لنا « ماثيو بارى » ، « MATHIEU PARIS »
أن المؤذن كان يدعو إلى الصلاة في معسكره حتى انتهى
الأمر بالبأبأ وأمرأء المسححية الآخريين بالتساؤل عما إذا
كان الامبراطور قد اعتنق المذهب المحمدي سرأ ؟! ...

هل كان « فرديك الثاني هوينشتوفين » ، « FRÉDRIC »
« VON HOHENSTAUFEN » مسلماً ؟ إن في هذا الاقتراض

~~~~~  
= دبوميدوس وضع أسسها غربى أبوليا وهى مشهورة بجمال أسوافها .  
وقد استولى عليها الرومانيون فى عهد بونسيوس هيرنيوس عام ٣٢٠ قبل  
المسيح ودمرت عن آخرها على أثر ثورة ثم أعيد تشييدها . وفى عهد  
سترايون كانت معالمها قد اندثرت واستخدمها اللومبارديون بعد ذلك مركزاً  
أماميا لهم . وفى عام ٦٦٥ استولى عليها امبراطور الشرق كونستان الثانى =

ما يضحك لا شئ إلا لأن فردريك كان أشد الرجال الحادا  
وجحوداً بالايمان فيجب ألا نرى في هذا الطابع الشرقى  
الذى تظاهر به أمام معاصريه الذين تملكهم الدهشة  
وعراهم الذهول إلا ميلا شديداً منه نحو عالم جديد مجهول  
واعجاباً لا نظير له بثقافة عالية تفوق ثقافة أوروبا في  
عصره كل التفوق .

على أن سلوكه هذا كان سبباً في إثارة مشا كل خطيرة  
فقد اختلف مع البابا غريغوريوس التاسع واستفحل  
الخلاف بينهما إلى حد كبير .

ولكن هذا الرجل الغريب الذى أغرم بالثقافة العربية

~~~~~  
= فى حملته على ايطاليا واشعل النار فيها ولكنها لم تلبث أن ازدهرت من
جديد فقامت جيوش شارلمانى العظيم عام ٨٠٢ و جيوش النورماندين عام
١١٠٧ . ثم عادت فتدهورت وكانت حالتها تدعو الى الرثاء عند ما فكر
الامبراطور فردريك الثانى فى أن يجعل منها مستعمرة عسكرية للعرب الذين جاء
بهم من صقلية إلى كايثانات . فشيد الامبراطور بالقرب من المدينة القديمة =

هو نفسه الذى نظم الحرب الصليبية السادسة وتولى قيادتها وإن كان ذلك منه تظاهراً لا عقيدة راسخة وسار لمقاتلة صديقه الكامل سلطان مصر وقد كانا يتبادلان الهدايا والممثلين السياسيين منذ أمد طويل . وقد ورد فى مؤلفات مؤرخنا المقرئى . ذلك المؤرخ الدقيق الذى أنى على سرد الحوادث سرداً مستفيضاً مسهباً . تلك النبذة عن فردريك الثانى : —

كان أميراً عالماً كبيراً فى الفلسفة والهندسة والحساب وجميع العلوم المنطقية وقد وجه إلى السلطان الكامل عدة أسئلة عسيرة عن نظرية الأرقام فعرضها السلطان على علم

~~~~~  
== عام ١٢٢٣ قلعة أحاطها بسور منيع لا يزال قائماً إلى أيامنا هذه . وكانت هذا السور يضم بين جدرانه مساجد وترسانات وورشاً ومنازل لسكان يمكن تقديرهم بستين ألف سمة . وقد أخلص عرب لوسيرا الذين كان البابوات يخشون بأسهم لأمرآة آل « صواب » وقاوموا شارل وأنجوى الذى لم يتمكن من إخضاعهم عام ١٢٦٩ إلا بالجوع والعطش . وقد استخدمهم بعد ذلك ==

الدين واصف وغيره من العلماء وبعث برده إلى الامبراطور  
وكان السفير الذي عهد إليه وإلى مصر بحمل رسائله  
إلى فردريك هو الأمير نخرالدين وهذا أيضاً من رجال  
ذلك العهد المدهشين . فقد كان بدوره مغرماً بالغرب  
بقدر ما كان فردريك مولعاً بالحضارة العربية بحيث أنه  
على الرغم من قيام الحرب الصليبية ظل هذان الرجلان  
مرتبطين برباط وثيق من الصداقة لم تفصم عراها حتى  
آخر نسمة من حياتهما .

وما أن وصل الامبراطور إلى بلاد الشرق حتى  
ليخال أنه تأثر بسحر الأراضي الإسلامية أكثر من

=====

في حروبه التي شنها على صقلية والامبراطورية البيزنطية ولكن نجده  
شارل الثاني غضب لحسن معاملتهم والتسامح معهم وهو تسامح لم يكن ليمشى  
مع روح ذلك العصر فطرد العرب من لوسيرا وأمر باعدام أو استبعاد جميع  
الذين رفضوا اعتناق الدين المسيحي واستبدل اسم المدينة باسم سانتا ماريا ١٢٩٩  
— ١٣٠٤ ولكن المدينة ظلت محتفظة باسمها القديم . وقد خلط بعض

ذى قبل وقد روى المقرئى حديثاً عنه وأيده فى ذلك  
المطران دا كشيـرا ، " THOMAS D'ACCERA " وهذا  
الحديث يكشـف لنا عن صفحة من صفحات هذا  
الامبراطور فى كثير من الدهشة .

قال فردريك أمام جمع من أمراء اللاتين وقد عرثهم  
الدهشة . إن غايتى السامية من الحجى . إلى القدس هى أن  
أسمع المسلمين فى صلواتهم يتهلون إلى الله ليلاً !

إن هذا الوصف ليرسم لنا بوضوح وجلاء صورة  
هذا المستشرق الامبراطورى الذى يعد بغير ما تـريب  
سلفاً بعيداً وغير منتظره لـشاتوبريان ولوتى ،

" CHATEAUBRIAND & LOTI "

~~~~~  
= مؤرخى القرون الوسطى بين هذه المدينة ومدينة نوسيرا الملقبة بمدينة
الوثنيين (Nocera degli pagani) وهو لقب يرجع إلى غزوات العرب
فى القرن التاسع . ولم تكن ثمة فى عهد فردريك الثانى مستعمرات عربية
فى نوسيرا . (Le. Dezobry et Bachelet : Dictionnaire
de Biographie, page 1652)

ففى عهد العباسيين الاول . وهو العهد الذى ابتعدنا عنه قليلا خلال حديثنا كانت أوربا لا ترقب إلا حجة لتقيم العلاقات مع الشرق . ولقد أقامت باصفة غير رسمية بواسطة مؤرخيها الذين أوفدتهم ليحملوا إليها ثمار ملاحظتهم ثم باصفة رسمية عن طريق سفرائها فقد أرسل الفرنج ، الكارولنجيون ، " CAROLINGIENS " سفارتهم الأولى عام ١٤٨ (٧٦٥) فى عهد بيان القصير " PÉPIN LE BREF " إلى بلاط الخليفة المنصور .

كانت تلك العلاقات وليدة رغبة الفرنج الذين كانوا يعملون على تحديد سلطة البابا الزمنية فكانوا يسعون إلى إيجاد مناصر لهم فى الشرق ليقاوم معهم امبراطرة بيزنطة الذين أصبحوا من دعاة تحطيم الصور . فلقد كانت الحدود الفاصلة بين العرب والبيزنطيين من بحر قزوين إلى البحر المتوسط سببا فى وقوع غزوات كثيرة من فرسان العرب

الذين كانوا يتقدمون في غزواتهم حتى كيليكيا وأنقره
بحيث أن الحرب لا تضع أوزارها ألبته بين الامبراطورية
العربية والبيزنطيين . وهذا ما كان يرتاح إليه الفرنج .
ولهم في سبيل ذلك بدأوا في التردد على بغداد وراء
ستار الإعجاب بالحضارة العربية سواء أكان حقيقياً أم
ظاهرياً أو كليهما معا . أما الحقيقة فانهم كانوا يبتغون
طلب شيء واحد . وهذا طبعى . جاءوا ليرجوا الخليفة
بأساليب الدهاء المقنعة بستار من العبارات الأدبية المنمقة
أن يستمر في حربه مع البيزنطيين قدر المستطاع . قد
لا تكون هناك أية فائدة من هذه التوصية فلا العرب
ولا البيزنطيون كانوا يرغبون في التنازل عن مطامعهم
المشتركة أو الكف عن قتال سوف يظل عهداً طويلاً
سواء بنصح الكارولنجيين الأجوف أو بغير نصيحهم .
ولكن يمكن الاستنتاج من ذلك أن الوسيلة في عقد

العلاقات السياسية بين الكارولنجيين والعباسيين
قد وجدت .

ولنرجع الآن في حديثنا إلى نظام الامبراطورية المالى
في عهد الخليفة المنصور . لقد كانت الأقاليم التابعة رأساً
لمركز الخلافة الرئيسى هي : بابل . سوس . وفارس
وكرمان والعراق العجمى وخراسان وازريجيان وما بين
النهرين وسوريا ومصر . أما الأقاليم التى كانت تتمتع بنوع
من الاستقلال الذاتى تحت إدارة الولاية فهى بلاد
نجد والبحرين واليمن . وغرب برقة وبلاد المغرب
وفارس والسند .

وكانت الضرائب تجبى من فارس والسند وجزء من
بلاد العرب وتدفع دراهماً فضية فى حين أن ضرائب
سوريا ومصر اللتين أهملتا مؤقتاً لصلحة العراق كانت
تدفع بالدينار الذهب .

ولما كانت العراق تقع مباشرة تحت إشراف الخليفة
الذى أغرم بها فجأة فانها كانت موضع رعاية خاصة . فقد
نفذت فيها مشروعات واسعة للرعى وحفرت الترع الخ...
أما الأعمال التى بدأها الأمويون لتحسين الاراضى
البرية فقد نمت وامتدت وأنجزت بنجاح بما ضاعف ثروة
البلاد وجعل منها نوعاً من أملاك الخلفاء العباسيين الخاصة
أو ما يسمونه حديقتهن الممتازة .

وقد ألغى المنصور دفع الضرائب على محصول الغلال
نقداً واستبدلها بضرائب عينية وفى آخر سنى عهده أدخل
البرامكة ضرائب ثابتة يدفع نصفها نقداً والنصف الآخر
عيناً . وقد وزعوا المبالغ بطريقة استبدادية بأن فرضوها
على كل فرد من السكان أو على كل وحدة من الزراعة .
وقد طبقوا تلك الضرائب الثابتة بغير تمييز وبدون مراعاة
لحالة البلاد التى أفقرت وافتقرت لعدم وجود الرى

أو لآى سبب آخر وأرغموها على دفع تلك الضرائب وهى نفس الضرائب المفروضة على البلاد المشهورة بخصبها والتي لا تلبث أن تضمحل وتفقد من خصبها تحت ضغط هذا النظام الاستبدادى .

وكان هذا النظام الذى بعثه البرامكة فجأة من التشريع الغابر لقدماء الفرس يتناقض تناقضاً صارخاً مع نظام الضرائب الاسلامى وروح الشرع الاسلامى نفسه .

أما الأرباح الشخصية التى جناها الوزراء البرامكة وأنصارهم من هذا النظام سرأ فى بادىء الأمر ثم جهاراً فكانت أرباحاً طائلة ولكنها أثرت فى إيرادات الدولة تأثيراً محسوساً وأنقصتها نقصاً ملموساً . فكان ذلك أحد الأسباب العديدة التى أدت إلى الصاق تهمة الزندقة بهؤلاء الايرانيين الذين ظلت ذكرى وطنهم الساقط عالقة فى أذهانهم حتى ليقال أنهم لم يعملوا إلا لإعادة صرح

امبراطورية المازنيين أو لاهياء شريعة زردشت وفي هذا ما يبرر بطريقة أخرى النعمة التي حلت بعشيرتهم عام ٨٠٣ .

وقد توصل المؤرخون على وجه التقريب إلى تقسيم ميزانية الامبراطورية في عهد الخلفاء العباسيين الأول إلى ثلاثة عهود .

العهد الأول من عام ١٥٨ حتى عام ١٧٠ (٧٧٥ - ٧٨٦ م) حيث بلغ دخل خزينة الخليفة ٤١١ مليون دينار ذهباً .

والعهد الثاني من عام ٢٠٤ حتى عام ٢٣١ (٨٠٩ - ٨٣٦ م) حيث هبط هذا الدخل إلى ٣٧١ مليوناً .

والعهد الثالث من عام ٢٢١ حتى عام ٢٣٧ (٨٣٦ - ٨٥١ م) حيث لم يتجاوز الدخل السنوى ٢٩٣ مليوناً وهكذا لم يسفر سقوط البرامكة عن أى تحسّين

أو تعديل في مالية الامبراطورية . فهذا النظام العقيم منذ نشأته أسفر بعد حكم المأمون وفي عهد الخلفاء المتعاقبين عن عجز كان يزداد عاما بعد عام . وإذ ذاك شرع ولاية الأمور لسد هذا العجز يطالبون هذا أو ذاك من الأقاليم بأن يدفع إلى خزينة الخلفاء سلفاً مبالغ طائلة وهى مبالغ كانت تنتزع فى بعض الأحيان انتزاعاً من الأقاليم أو شكت مواردها أن تنضب . وبما ساعد على انهيار الامبراطورية ودك صرحها فيما بعد تلك الأعمال الاغتصابية التعسفية التى ارتكبت لمصلحة الافطاعات العسكرية والضرائب الباهظة التى كان يفرضها أمراء العمارات . وهم من الديكتاتوريين العسكريين الذين نصبوا على الامبراطورية فى آخر عهد الخلفاء العباسيين اسد نفقات الجيوش المرتزقة وهؤلاء كانوا يجندون دائماً من الاثراك والأكراد . أتأ لا يزال بعيدين جد البعد عن عهد انهيار

الامبراطورية العباسية وسقوطها على أن تلك الشبكة
المحبكة التي حاكها عمال الجاسوسية السياسية وتلك
الضرائب المفروضة بوجه عادل أو بطريقة غير مشروعة
وتلك التدابير البوليسية التي أقامها المنصور لضمان سلامة
ملكه . كل ذلك لم يحل دون ثورة الشعوب المتذمرة
المغلوبة على أمرها .

فند عام ٧٦٠ عاودت الفتن والإضطرابات سيرتها
الأولى في كثير من أنحاء الامبراطورية . فبعد أن
طأطأت سوريا رأسها اذعاناً للعباسيين أخذ الحجاز يتحرك
بدافع من الامل الغامض . وفي عام ٧٦٢ حاول بعض
أنصار العلويين المنسيين أن يضرمو نار الثورة في الحجاز
بانضمامهم الى ابراهيم أحد آل الحسن « ابن الخليفة على »
للمطالبة بحقوق هذا الأخير بالخلافة ولكنهم فشلوا .
وفي عام ٧٦٤ شبت ثورة عنيفة في فارس إذ دعا

سمباد المزدكى مواطنيه الى الانتقام لقتل أبى مسلم . وقد اندلعت نيران هذه الثورة الخطيرة فى خراسان وازريجان . فأرسل المنصور نجله المهدي على رأس حملة عسكرية ضد سمباد الذى قتل فى معركة جامية الوطيس بالقرب من همدان .

ولعل أعنف الثورات التى واجهت المنصور هى ثورة دجال فارس يدعى « استديس » وقد ادعى النبوة وأثار الحيرة ولكنه قتل بعد عناء طويل . وقاتله هو ابن خزيمة عام ٧٦٥ .

وبعد أن انتهى المنصور من اخماد نار هذه الفتن والاضطرابات وادخال التعديلات الجديدة على نظام الحكم فى ولاياته وجه جل اهتمامه فى الشطر الثانى من حكمه الذى استغرق ٢٠ عاما الى النهضة الفكرية والعلمية فأخذ يشجع رجالها ويمدحهم بتعظيمه .

وقد ولى العلوم ولا سيما الطب كل اهتمامه فاستدعى الى بلاطه طبيباً مسيحياً يدعى جيورجيس بن بختشوع المعروف بجيورجيس بن جبريل وهو من جنداى شاهبور حيث كان يدرس الطب وقد شفا هذا الطبيب الخليفة المنصور من داء ألم بمعدته ثم أبلغه أنه ألم بعلم الطب عن الأبحاث العلمية التى وضعها قدماء اليونانيين وأنه يدرس الطب فى مدرسته بجنداى شاهبور على أساس مبادئهم ونظرياتهم . وعلى أثر ذلك أمر المنصور بتعريب أبحاث جاليانوس الأولى عن الطب وشجع كذلك دراسة علوم الصيدلة ووضع أسس مدرسة الطب هذه التى أحرزت فيما بعد أيام حكم حفيده الخليفة المأمون شهرة عالمية وأصبحت تنافس مدرسة الطب فى قرطبة وهى لا تقل عنها شهرة .

وقضى المنصور نحبه عام ١٥٨ (و ٧٧٥م) تاركا

الامبراطورية من بعده لابنه محمد المهدي .

وكان هذا الشاب البالغ من العمر الرابعة والثلاثين على جانب عظيم من الثقافة وسعة الاطلاع ودماثة الاخلاق . ولكن مما يؤسف له انه كان ضعيف العزيمة والارادة إلى حد بعيد . ولئن كان في استطاعة هذا الملك العالم أن يقضى الساعات الطوال في مناقشة أصعب المسائل الحسائية وأشدها تعقيداً للوصول إلى الحل الموفق . فانه كان على نقيض ذلك عاجزاً عن مقاومة السيطرة الوحشية التي كانت تفرضها عليه زوجته .

كان المهدي من هؤلاء الرجال الذين لا يستطيعون التحرر من سيطرة المرأة على حياتهم . فقد كان منذ ارتقائه العرش قد اختار محظية فارسية فارهة الجمال تدعى « الخيزران » ، واقترن بها فأنجب منها ولدين هما موسى المهدي وهارون الرشيد .

كانت الخيزران دساسة مثقفة موفورة الذكاء . فقد كانت تقيم في قصرها متديبات أدبية وهي لعمري إحدى أولاء النساء اللاتي برعن من جميع الوجوه وبحسن تمثيل الأمور فيلبسن لكل حالة لبوسها أما نعيمها وأما بؤسها . وهذا كاف ليوضح لنا كيف أن دسائسها منذ فائحة حكم المهدي قد قلبت داخلية القصر رأساً على عقب وأثرت في السياسة .

واستاءت الخيزران من أبي عبيد الله وزير المهدي لأنه أدرك ما يرقب مولاه من الأخطار في المستقبل فحاول أن يحد من سيطرتها ونفوذها على الخليفة فكان ذلك سبباً في سقوطه وزوال حظوته ونفيه .

وولي بعده يعقوب بن داود ولكنه سقط بدوره ولما يميز عليه خمسة أعوام لأنه عارض في حقوق الملكة وتدخلها في شئون الدولة بتعيين حكام الأقاليم وعزلهم .

وإننا لتساءل عما إذا كانت هيئة الحكم أو نزعة
الديسيطة أو أيضاً نزعة إمراة غير مسئولة هى التى كانت
تدفع بالخيزران إلى احتلال تلك المكانة البارزة فى شئون
الدولة . لعمرى إن الأمر كان أسوأ من ذلك وما الدافع
إليه إلا مطامع شيطانية وغاية شريرة كانت تضعها نصب
عينها وتنابر على الوصول إليها فكان ذلك سبباً فى وقوعها
فى الجرم .

فمنذ عام ٧٨٠ كان الخليفة قد عين نجله الأكبر
الهادى ليخلفه فى الملك . أما الخيزران فكانت تريد
الامبراطورية لنجلها الأصغر هارون الرشيد فقد كانت
تحبه حباً جماً وتفضله على شقيقه الأكبر الهادى ولكى
تضمن له العرش أخذت تحيك أشد المؤامرات جراً
وأشركت معها فى عملها أسرة البرامكة الماكرة الخاضعة
التي بدأ زعيمها يحيى . منذ ذاك الحين . فى تمثيل ذلك الدور

الخفى المجهول الذى طالما حير المؤرخين وكان موضع
جدلهم وتناقضهم . فهو لم يصبح أعظم المستشارين نفوذاً
فحسب . بل اداة للانتقام فى يد الملكة الناقمة الحقود .

فبعد أن حاولت الخيزران بغير ما جدوى ان تلصق
بالهادى تهمة الخيانة العظمى إتهزت وانصارها فرصة
وجود الأمير الشاب فى الجرجان حيث كان يعمل على
إخماد نار الثورة فيها عام ٧٨٣ لى يجرده بجمع
الوسائل من حقوقه فى خلافة العرش . على انهم اصطدموا
فى هذا الصدد برفض قاطع من الخليفة .

إن للضعفاء احياناً ثورة حزم تحمل الدهشة إلى اعماق
النفوس إذ هى تكشف فجأة عن عزيمة لم تعرف عنهم ولم
تعهد فيهم من قبل وللرة الوحيدة رفض الخليفة المهدي
ان يصنى إلى ايعاز زوجه واتهاماتها وابى ان ينتصخ
بنصحها ويعمل برأيها .

كان المهدي معترفاً ألا يغير نظام الوراثة في
الامبراطورية وهو النظام الذي وضعه عام ٧٨٠ ومصرأ
على ترك العرش لنجله الأكبر وكان آتئذ في الرابعة عشر
من عمره . لقد قرر أن يحكم الهادي أولاً على أن يخلفه
هارون من بعده .

وانا لنتساءل عما إذا كان الخليفة قد سلك هذا المسلك
الحازم بدافع من الحب والتفضيل لنجله الأكبر أم بدافع
العدل الأبوي أم الذكاء . أم أيضاً بدافع الخوف من أن
يترك عرشه لغلام يافع قد يقع حتماً تحت نفوذ والذته ،
وكانت الشكوك قد بدأت تساوره بشأنها ، أو تحت
سلطان البرامكة الذين خضع بنفسه لسيطرتهم الطاغية
وحاول عبثاً أن يتخلص منها . إنه كان يخشى عاقبة نفوذهم
الوخيم إذ كان يعلم أن هذا النفوذ لا بد أن يمتد إلى عهد
غلام يافع ضعيف فيسيطر عليه . إن جميع الافتراضات

لمحتملة . هل كان الخليفة ينوى الايقاع بمن حوله فخيّل دون ذلك ؟ لقد توفي المهدي فجأة فقال البعض إنه قضى نحبه في حادث صيد وأكّد البعض الآخر أن السم دس له في إحدى حفلات الصيد في اليوم الثاني والعشرين من شهر محرم عام ١٦٩ - ٤ اغسطس ٧٨٥ م .

ومهما يكن من أمر . فقد خلفه موسى الهادي عام ٧٨٥ على الرغم من جميع الدسائس التي حاكتها الخيزرانة وأنصارها البرامكة للحيلولة دون ارتقائه العرش فقد أحبط القدر جميع مشروعاتهم . وأقنع يحيى البرمكي الخيزرانة وحملها عندئذ على عدم تعكير صفو حفلة المبايعة باقترافها أمرا جنونيا فاستسلمت الخيزران للصدمة هاشية باشة إذ طأطأت رأسها المتكبر الأثيم وطابت إلى ابنها هارون أن يخنى جبينه البريء أمام الملك الجديد .

وكان أول عمل أقدم عليه الهادى عند ارتقائه
العرش هو الحد من السلطة الواسعة التى اختصتها والدته
لنفسها والقضاء على نشاطها السياسى والتخلى مهما كلفه
الامر وطلب إليها أن تلزم عقر دارها وحظر عليها كل
اتصال مباشر مع كبار موظفى الدولة . ولم يقف الخليفة
الشاب عند هذا الحد بل التى بجميع معتوق الخيزران فى
غياهب السجون ووضعها وشقيقه الهارون تحت رقابة
ساهرة كانت أشبه باعتقال مستتر !

وقد شعرت الخيزران بعظم الاهانة والمذلة حتى
أعماق قلبها من جراء تلك التداير التى لم تكن لتروقها .
فلسوف تنتظر فى ظلمة قصرها ... ولسوف تنتظر صامته
متحفزة كالنمرة ترمق اللحظة المواتية للوثوب والبطش . أما
تلك اللحظة فسوف لا يطول انتظارها .

ولكى يقضى الهادى على جميع مطامع شقيقه فى

العرش وأمانيه فيه عين ابنه جعفر وهو طفل في الرابعة من عمره خليفة له ووليا لعهد فخرم هارون بذلك من العرش وقضى على حقوقه فيه قضاء مبرما .

على أنه مهما كانت دلالة هذا العمل الجريء وسرعته فهو لم يكن من المهارة بشيء مع وجود الخيزران متربصة تراقب الحوادث بعين ساهرة وتتحين الفرص في ظل انتقامها وقد أعز ربيع بن سهيل وزير الهادى إلى مولاه وأسر اليه بأن ابعاد هارون من العرش او حرمانه من حقوقه فيه لا يكتفى إذ أن وجوده على قيد الحياة يعد في حد ذاته من أعظم الأخطار على طمأنينة الدولة وسلامة مملكتها . ولذلك يقال إن الهادى كان يفكر في التخلص من شقيقه . غير أن البرمكى أبلغ الخيزران نية الخليفة سراً فحال دون وقوع المأساة وتأمرت على الهادى وعملت على ضياعه لانقاذ هارون .

• عند ما يريد الشيطان شيئاً فإنه يدركه عادة . فقد دعت الخيزران الهسادى إلى حفلة فى قصرها وهناك التف جوارىها حوله وكتمن أنفاسه ومازلن به حتى قضى نحبه فى ليل ١٥ / ١٦ ربيع الأول عام ١٧٠ هـ - ١٥ سبتمبر سنة ٧٨٦ م ولم تتجاوز خلافته سنة وشهراً .

أما هارون البرىء من تلك الجريمة الشنعاء التى ارتكبت من أجله وبغير علم منه فقد أيقظته والدته ويحيى البرمكى فى منتصف تلك الليلة المشؤمة لىسمع المناداة به خليفة على المسلمين .

ويقال - إن صدقا أو كذبا - إن هذا الشاب البالغ السابعة عشرة من عمره الذى قدر له أن يحكم بمشيئة الأقدار العجيبة . قد صاح تلك الصيحة المؤلمة المليئة بالجزع والاهتمام « أواه يا أماء ... ماذا فعلت ؟ ! »

ترى هل كانت صيحة اللوم هذه اعترافا منه ببراءته

إنه للوم مؤلم من ذلك الابن الذى يدين بحياته لتلك الأم
التي أعماها حبها أو طموحها ودفع بها إلى ارتكاب أفظع
الجرائم وأشنعها لتنال له عرشاً !

ولكن مالنا والحكم على أعمال الخيزران والدور
الذى مثلته فقد غمرها الرشيد بعطفه وحنانه وأحاطها
بجميع أسباب العزة والكرامة ولم تطل حياتها في عهد
ابنها الثانى . فقد ماتت بعد ارتقائه العرش بثلاثة أعوام
سنة ١٧٣ هـ — ٧٨٩ م .

ولنتجه بأنظارنا إلى ذلك الأمير الشاب لنرى كيف
عاش وحكم إذ أنه الأمير الذى أصبح أعظم الملوك جاهاً
وأكثرهم بذخاً وأغزرم علماً وأبعدهم ثقافة كما أنه كان
أحد الرجال الذين حار فيهم التاريخ وكثر حولهم جدل
المؤرخين .

أسرة بني العباس

٢

التجارة والتجار . الأسواق والحانات والخانات
« الفناحق » . الخليفة المتكسر والخليفة المتجول . الشعراء
المسفون . علماء العرب ومدارس بغداد . ولأثم هارون
الرشيء . الرافضات والفوائى . السفارات والقنص
والاستعراض . زبيدة الأميرة المسلمة .

إن نجاح المؤامرة عام ٧٨٦ التي أودت بحياة
الهادي وترفع إلى العرش هارون الرشيد قد عززت حتما
أسرة البرامكة وحملتها إلى أرفع ذرى المجد والجاه .
فما أن اعتلى هارون العرش حتى سلم مقاليد الأعمال
بأكملها إلى يحيى البرمكي ووضع زمامها بين يديه . فأسرع
هذا الأخير إلى إرسال أحد أنجاله وهو الفضل حاكما على

خراسان وقلد غيره من البرامكة زمام الحكم في فارس
وازربيجان وأرمينيا وهكذا وضع أقاربه في كل مكان
وعلى رأس جميع ولايات الامبراطورية ومصالح الدولة .
وليس في هذا التصرف ما يدعو إلى الدهشة فهو أمر
عادي طبيعي .

كان يحيى منذ عهد بعيد قد دفع بجعفر نجله الثاني إلى
داخل القصر وضمن حاشية الخليفة وخاصته بل رفع به
إلى أرفع درجة من درجات العرش وأقربها إليه . وكان
جعفر الشهير صديق هارون منذ صباه وحظيه في جميع
ساعاته ولحظاته . وبذلك تم له أن يترك الباب مفتوحاً
لمختلف أنواع الدسائس والمفاجآت وجميع أساليب
السخرية والدهاء وجز الشعور والأعناق .

ولم يك هناك شك في أن هارون الفتى الطائش كان
لابد أن يترك للبرامكة الحبل على الغارب فيتقامرون

يحفظ الامبراطورية ويعقدون شئون الدولة ومالياتها أو
يحاربونها . وكان لابد أيضاً أن يترك — كلا بل يساعد
هؤلاء البرامكة النهمين يتقلبون بين أحضان الذهب وإن
قدر أن يدفعوا ثمن هذا الذهب غالباً فيما بعد . لاشك في
أن هارون كان يتمتع بالملك بل ويتمتع به في أسنى مظاهره
ولكنه كان لا يحكم بل كان ينظر إلى يحيى وهو يدير عنه دفة
تلك الامبراطورية الواسعة التي دفع الأمويون السالفون
بحدودها إلى أبعد ما يمكن أن يتصوره عقل ولكنها بدأت
تتضاءل شيئاً فشيئاً ولابد أن تستمر في هذا التضاؤل
والانكماش .

فكثير من مختلف الولايات قد انشقت قبل ذلك مثل
أسبانيا فخرها العباسيون تماماً منذ عهد المنصور ولسوف
يأتى دور افريقيا الشمالية مثل تونس والجزائر وطرابلس
لسوف يرسلون هرشة بن أعين على رأس حملة كبيرة

لاخضاع الثوار فينخمد نيران الثورات على أن ذلك لن يصلح الامور إذ أنها لا تلبث أن تنفجر من جديد بل هي تظل مستمرة دون انقطاع . ولسوف يعيشون أيضاً بحاكم هو الأغلب ذلك الرجل الحازم الداهية بل ان دهامه كان ممتازاً إذ قد تمكن بمساعدة البربر من الجلوس بدوره دون أن يعكس صفوه أحد على عرش آخر في القيروان حيث تحكم سلالته مائة سنة ونيف من عام ٨٠٠ إلى عام ٩٠٩ (١) .

ثم تنضم مراکش نهائياً تحت لواء شخصية جميلة ساحرة هي شخصية السيد إدريس (٢) الذي يؤسس دولة العلويين المستقلة و سلالته هي سلالة الادريسيين .

ثم لا تلبث فارس وازريجان ولا سيما خراسان أن

(١) الاغليون كانوا يحكمون تحت سيادة العباسيين

(٢) إدريس من سلالة الحسن بن الحليفة على

ثور وثور مراراً وتكراراً تبعاً لرغبة البرامكة
ومشيئتهم . وكلها نفخوا في مرجل الثورات تبعاً
لمقتضيات سياستهم ولأسباب شخصية لا يعرفها إلا هم وإن
كانت موضع الريبة والشك من الكثيرين .

وجمل القول أن الاثنتي عشرة سنة الأولى لحكم
هارون مرت وهو ينظر إلى يحيى والبرامكة يحكمون بينما
كان يعيش مع جعفر الذي كان يلزمه ملازمة الظل عيشاً
غريباً . لم يتمكن إلا قليل من الرجال سواء أكانوا أمراء أم
أتباعاً . من مجاراتها فيه . فقد اندججت شخصيتهما ببعضهما
وامتزجتا حتى لم يعد من الهين التفريق بين هذين الشابين
أو معرفة من كان الخليفة منها !

كيف ينظر الناس إلى هارون الرشيد عامة .
أنهم ينظرون إليه من وراء ستار من الترف ضاعت
معامله منذ عهد كسري وخلف سمعة من البذخ والتبذير

والكرم المتناهى والقسوة الغريبة المدهشة ومن وراء
البخور المتصاعد من قصص ألف ليلة وليلة وأحلامها
الجميلة ومن وراء الشهوات التى لا يتصورها عقل والتى
حاكها الغريون بمخيلتهم فأحاطوها بنسيج مسرحى وإن
كان ساذجا . ومن وراء أغاني الشعراء الذين أحاطوا اسمه
بسياج من أحلامهم . ليس شك فى ذلك .

ما الذى كان يمتاز به عن أسلافه وعن خلفائه مما
يجعل الخيلة لمجرد ذكر اسمه تذهب بك إلى عالم الأعاجيب
شئ لا يذكر .

إن المرء ليتساءل عما فعله من المدهشات أكثر من
غيره لكى يحتكر لنفسه بذخ الشرق وعظمته وبيتلعه من غير
مبرر ولا مسوغ شهرة الآخرين . ولكى يتغنى به رواة
ومؤرخو الشرق والغرب ويقرعون اسمه كالطبل منذ
عشرة أجيال ويحيطونه بالمجد وإن كان مجداً أجوف

أجذب دعيا إذ أنه لم يكن فاتحاً ولا مشرعاً ولا مصلحاً
ولا عبقرياً ولا فذا بل ولا معتدلاً . وإذن علام تلك
الشهرة المفتعلة .

فالواقع ان هارون الرشيد لم يبتدع شيئا عجيبا ولا
خاصا إلا أن الصدقة قد جعلته يولد في فجر مدينة سامية
فعضدها . وسواء أكانت الصدقة قد رفعتة إلى العرش أو
سواء أن تلك الصدقة جعلته يتمتع طيلة حياته بذلك الشيء .
الهوائي العجيب الذي يصعب تحديده ويتعذر تفسيره
ويتجاوز كل منطق ولكنه مع ذلك يعد كل شيء . ولا شيء .
أو لا شيء . وكل شيء معا . ذلكم هو الحظ .

هل هذا يدهشكم . ربما . ولكن ماذا عساكم
تريدون أن يكون أن لم يكن الحظ .

حظ مدهش ذلك الذي خلد ذكرى هارون صافية
لامعة وحملها على أجنحة الريح واخترق بها الاجيال

والعصور وجعل ألسنة الناس تلهج به ومخيلتهم تذكره كما لو كانت في حلم عميق لا لشيء إلا لأنه لم يعمل شيئا أو عمل شيئا لا يكاد أنه يذكر .

ومع ذلك فلو أن جميع الذين كانوا موضع رعايه الحظ في التاريخ لم يتمتعوا بتلك العاطفة الجذابة التي تقربهم إلى النفس فان هارون . على نقيض ذلك . كان جذابا . ولو لم يكن لقب « المجنون الأنيق » ، تافها أو عصريا صميا لتلقب به مثل هؤلاء العظماء القدماء فهذا لا يمنع أن يكون هذا اللقب خير معبر عنه لقرب معناه من طبيعته المتنوعة . انه جذاب لأنه لبق متقلب متأنق . ولأنه إذا استثنينا غريزته الوحشية . لم يكن عريدا ولا فاسقا . فهو المتحمس بغير مثل أعلى والعالم المتشكك بغير غاية والمتضجر العنيد اليأس الذي طالما رأى وشاهد حتى عمى عنه البصر فلم يعد يحسن الرؤيا فاذا استيقظ من غفلته أصبح بشراً

رحيماً وإنساناً تافها (١) .

ولذلك لا يجب ملاحظته ودراسته في حياته العامة وهي حياة السلطان الباذخ ولكن يحسن ملاحظته من وراء حياته الخاصة العادية وفي ساعات استرساله . إن كثيراً من الناس . بل أغلبهم . يتخيّلون أن حياة هارون ليست سوى سلسلة من الفسق في حفلات مستمرة بغير انقطاع . ولكن هذا خطأ ولذلك فأننا سوف نلقى على تلك الحياة الخاصة . نظرة ثابتة لنقف على حقيقة شخصية هارون أو بتعبير رجعي آخر ، الخليفة الصالح ، .

كان هارون الرشيد لا يحب بغداد ويفضل الرقة . كان يفضل خصوصاً ذلك القصر القائم عند ضواحي الانبار

(١) خلق السياسة والكياسة أم خلق المصنوعات والمرح أم هما ممتزجان بطابع المروبة اللاذعة الحارة وبطابع الأعجمية المزخرفة الحلوة الجذابة يظهرهما المناسبات السياسية العميقة والأبهة والجلالة المتأرجحة على سارية من الجمال الصوري لهذا لكل مؤرخ وجهة وناحية .

الذى شيده ارضاء لنزعة فى نفسه على سواحل الفرات فى
وسط غيض من الخضر والازهار وكان أيضاً يحب ذلك
الجناح المنعزل الذى بناه فى وسط غابة من شجر السرو
على مدى بضعة فراسخ من بغداد وتمكن أن يجمع فيه
مجموعة نادرة من المخطوطات والمطبوعات الثمينة فكان
يلجأ إليه كلها حمله الشوق إلى التعمق فى الدراسات الادبية
فللرشيد ناحية عملية جادة أهملوا وصفها والتحدث عنها
لكى لا يصفوه إلا متدثراً بلباس الامارة الساطع . ولئن
لم يكن يحب عاصمته فان ذلك لم يمنعه ارضاء لفضول طبيعى
من أن يرود فى جميع أنحائها ويقف على جميع خباياها فقد
كان يتردد على ضواحيها وأزقتها وطرقها وأحيائها
المكتظة ويزور مدارسها وقصورها وحماماتها العامة
وحوانيتها وأسواقها وخلواتها المظلمة . لقد كان يعرف
بغداد ولكن كما يعرفها المتنزه الحر الذى يبحث عن

أحداث جديدة والمفكر الذى يلاحظ مسروراً وينظر
ساخراً .

كان فتيان تكاد تكون قامتهما متساوية يرتديان
لباس التجار العادى أو لباس الطلبة البسيط ويسيران
معا فى أحياء المدينة وطرقها المكتظة وأحدهما كان
هارون والآخر جعفر لقد كانا يجتازان الأسواق دون أن
يعرفهما أحد . ويسيران تحت القباب النادرة حيث توجد
الحوانيت المكدسة بما فى الشرق من ثروات تحملها اليها
القوافل بغير إنقطاع وفى هذه الأماكن أيضاً كان قلب
الامبراطورية ينبض ودمها يسيل بلا إنقطاع فى أليافها
وشرايينها . فى هذه الحوانيت ونحت تلك العقود يعيش عالم
من التجار والبدالين والجوالين والوسطاء والسماسرة
والصناع والفنانين يتناقشون ويبيعون ويشتررون
ويصدرون ويستوردون ويتبادلون منتجات العالم بأسره .

فمن مصر كان يرد البلسم والكتان والقنب والقمح
والنحاس والذهب وزمرد النوبا^(١) ومن الحبشة العاج
ومن أسبانيا الحرير والصيني والجلود والأسلحة الصلب
ومن اليونان النباتات ذات العرف الطيب والصمغ
ومن سوريا دمشق وصور، الزجاج والبللور والاصواف
ومن بلاد العرب البخور ومن مايوركا الشبه ومن كابول
الصبغة ومن جزائر الملدات العنبر الأسمر ومن سومطره
البخور الجاوى والزعفران والقرفة ومن جاوه خشب
الصبر ومن الهند الذهب والماس والعاج والاششاب
الثمينة والصندل ومن خليج فارس البحرين وحضرموت
وعمان، اللآلىء والصدف ومن سيلان الياقوت
واللازورد والبهار ومن فارس كرمان، الاصواف

(١) مناجم الذهب والزمرد في الوجه القبلى والنوبا التى كانت تستغل منذ
اليهود القديمة ثم نفدت وهوت في القرن الرابع عشر

ومن شيراز الفيروز والعقيق والمرجان ومن أصفهان
أقمشة التفتاه ومن بخارى الطنافس والأصواف
والسجاجيد والأقمشة ومن مرو الزبرجد ومن الموصل
صفائح الصلب والموسلين ومن سمرقند الأطلس والفضة
والأقمشة الناعمة ومن الصين الصينى وحجر الشب
والحرير الخام والصمغ اللك ومن التبت المسك .
وهناك أيضاً تلتقى مختلف أجناس العالم وتتصادم . فمن
أهالى القلق فى القوقاز الى خزارىي الفولجا
واسكندنافي^(١) البلطيق وكلهم من صانعى الفرو الثمين
وتجاره .

(١) هنا مايفسر اكتشاف كمية من النقود العربية التى يرجع عهدها الى
العباسيين والأيوبيين فى بلاد اسكندنافيا وبذكر المؤرخ هيران جزءاً كبيراً من تلك
النقود كان محطاً وأنه من المحتمل أن يكون أهالى الشمال هم الذين جطوا هذه
النقود المجهولة التى أتت بها التجار من الشرق من باب التسلية واللهو وقد كانت
التجار العرب يؤمون بلاد الشمال لالفرءاء الفرو وغصب بل لدرس تلك البلاد =

ويؤم تلك الأسواق كذلك الفرنجة والفلامنديون
والنورمنديون وإيطاليو جنوا والفينيقيون والصقليون
والمصريون والأجباش والایرانيون والأرمن
والقوقازيون والتتر والترك والهنود والصينيون
والماليزيون ثم اليونانيون والبيزنطيون من جميع المهن . فمن
المعلم إلى التاجر ومن الراوي إلى النحاس ومن الحائك إلى
الفنان المنافس للرسم الفارسي والنقاش العربي فكانوا
جميعاً يحملون إلى الشرق من الفسيفساء وأشياء أخرى هي
من أبداع ما أنتجه فن نحت الرخام الملون وفن الطلاء بالمينا
الدقيق الناعم الشبيه بأفنان الأزهار .

واقترب هارون وجعفر يوماً من جماعة من التجار
كانوا يسامون تاجراً من قرطبه ويناقشون في سعر قطعة

والوقوف على اخلاق اهلها وعاداتهم . ففي سنة ٩٢٠ أرسل الخليفة
المقتدر ابن فضلان في بعثة علمية وذلك قبل أن يقوم ابن بطوطة برحلته الغربية
المدحمة إلى بلاد العمال .

من الحرير المطرز بالذهب والفضة صنعت في مصنع
الأمير الأموي في أسبانيا وتطور الحديث بعد أن كان
تجارياً واتخذ شكلاً سياسياً. فكان العربي الأسباني يفخر
بمواهب أميره وتجار بغداد يفاخرون بمواهب هارون .
وتحول الحديث إلى المقارنه والمقارنات وإن كان في بعض
الاحايين مؤلمة إلا أنها مفيدة وسمع هارون بهدوء
الانتقادات الموجهة إليه من أحد رعايا خصمه الأموي
الاسباني فتجهم وجه العباسي عفواً ثم عاوده صفاءه إذ
سمع المديح الموجه إليه من تجار بغداد لقد كان إذن محبوباً
من الشعب يقينا إلى حد بعيد . فاشتبك في الحديث
وتظاهر بالاهتمام لثرهات القرطبي وموافقته عليها فعيل
صبر التجار البغداديين وألقى عليه أحدهم سؤال قال :

من أين جئت أيها الشاب ؟

من غرناطة

وفي أحد الأيام قص هارون على أحد كبار تجار
الجواهر أن والده وهو تاجر من الفسطاط ، مصر ، قد
أرسله إلى بغداد للسياحة أولاً ثم لشراء أكبر كمية من
الياقوت يعثر عليها في سوق العاصمة فأصغى إليه الجوهرجي
ثم هز برأسه وأجابه بأن ذلك متعذر ومستحيل . فلئن باعه
الياقوت فانه يبيع في نفس الوقت رأسه للجلاد لان
الياقوت يشتريه جعفر .

ومن يكون جعفر هذا ؟ .

فنظر إليه التاجر نظرة احتقار : إنه لابد غريب عن
الديار ليجهل من يكون الوزير البرمكي . صديق أمير
المؤمنين الذي لا يفارقه لحظة الذي كان يشتري
الجارية بخمسين ألف دينار . ويحجز لحسابه . لو شاء ذلك
جميع كميات الياقوت في سوق بغداد ويصرف في عام واحد
إيراد ثلاث ولايات فاذا صادف أى أمر منه اعتراضاً أو

مخالفة فان جزاء ذلك المخالف الوقح يكون ثمانين ضربة
سوط هذا ان لم يدفع ثمن وقاحته برأسه وبدون أية محاكمة .
— لو قدر أن يباع القمر فان أمير المؤمنين يشتريه له .
— وأمير المؤمنين .

فأجابه الجوهر جى بلهجة التأكيد .

— إن أمير المؤمنين أعز الله اسمه يشتري من ابراهيم
الموصلى أنشودة ويدفع عنها مائة ألف دينار ويحظر عليه
غناها لاى كان الاله . أما جعفر فيعرض عليه خمسين ألف
درهم أكثر منه ويصرح لابراهيم بانشادها للجميع .
فأجاب هارون ضاحكا :

فى هذه الحالة لا أدري أى الاثنين أجن من الآخر
أو أكثر اسرافا أهو الخليفة أم وزيره ١٩ .

— حسن عباراتك يا هذا إن كنت متمسكا برأسك
كانت النصيحة قيمة فتقبلها الخليفة وانصرف فرحامرحا

وفي كل عام كانت تقوم سوق الأخبار إلى جانب
سوق السلع فكان هارون ورفيقه يلحون بين جموع
الدهماء. وكثيراً ما كانوا يصغرون إلى حديث بعض الرواة
العاديين وجدلهم في حوانيت الكتب. وكان هؤلاء الرواة
بما يبدو عليهم من المظهر الكاذب وما يقولونه من
العبارات الضخمة يتطرقون في أحاديثهم إلى مختلف
المواضيع ويؤثرون على رجل الشارع الذي يصغى إليهم
فيستمع إلى بلاغتهم في سرد الحوادث التاريخية القديمة التي
يمسغونها بصبغة خرافية. وأكثر هؤلاء الرواة دهاء
وخبث كانوا يعلقون على أصغر الحوادث التي تقع في
المدينة والبلاط. ولما كانت بغداد كسائر المدن الكبيرة.
ملجأ طبعياً يأوي إليه مهاجرو القرى والريف فكان
ما يقال من الهذر يجد اذناً صاغية بين الجموع الحافلة
المتحفزة للثورة والهياج. وكل قصة مادامت لازعة أو

جميلة أو مدهشة كانت تصدق في الحال وتتأقلمها الأفواه .
ففي تلك المشارب والحنات الشعبية كان المرء يشاهد
الفرح يتجلى على وجوه الشعب والسخرية تتصاعد من
أفواهه والغضب يفعم صدره وبين جوانبها سمعت لأول
مرة تلك الكلمة المشثومة كلمة « زنديق » تقال همسا
وتوجه للبرامكة وتصيب جعفر كالصاعقة وعبثا يحاول
حرس البرامكة الخاص أن يكف أفواه المتهوسين ويفتك
بهم سرا أو جهارا فان تلك الكلمة البذيئة تظل عالقة
باسمهم كسبة في وجه الدهر (١)

وفي أحد مطاعم المدينة كان هارون يستمع إلى
حديث جيرانه وكان أغلبهم من المتعلمين فكانوا يتناقشون
فيما بينهم عن السياسة الحالية . الحرب مع البيزنطيين

(١) وكانت توجه الى الخليفة أحيانا كلمات طائشة فيقابلها بالابتسام قائلا
« انها سفسفة جهلاء » ثم يواصل تجوله مرحا مسرورا

والحرب مع الخزاريين وثورات أفريقيا وخراسان
والضرائب الجديدة وتعيينات الموظفين وتزييف البضائع
وكل ما عداها. وفي مساء ذات يوم بينما كان هارون وجعفر
جالسين على ايوان في خان يتردد عليه السياح والغرباء
والتجار والفضوليون . التقيا بأحد المداحين هو مروان
ابن أبي حفظة أبوه يهودى وأمه غريبة وأخذ المداح
يشيد بفضائل المهدي ويحط من مجد هارون الرشيد
بانتقاد العلويين .

وعند أحد باعة المرطبات حيث يتردد الطلبة لاحظ
هارون وجعفر يوما ما أن الشاربين يطلبون أشعارا من
شخص مهلهل الثياب وفد عليهم . فهل هو شاعر؟ لقد كان
هذا المتشرد شاعرا في الواقع ولسوف يسحر هذا الشاعر
الشرق بأسره بعذوبة ألفاظه فهو مسلم بن الوليد^(١) الذي

١ أطلق عليه هارون « صريع النواقي »

كان يعيش عيشة الجوالين وكثيراً ما كان لا يجد لنفسه مكاناً يأوى إليه ليلاً . لقد كان غرامه بذيتاً ولكن مخيلته كانت تلقى عليه وشاحاً من الكمال ومثانة أسلوبه تجعله في مصاف أرفع الشعراء كهبا وأطولهم باعاً . ويقال إن هذا الشاعر العربي كان يتمتع بصوت رخيم فكان ينشد الشعر فرحاً مسروراً ويتغنى بذلك الخمر الذي يصنعه المزدكيون ويعاقره ويمتدحه بغير ما خجل ولا ورع وهو الخمر الذي لم يبخل به هارون على نفسه في ظل قصره .

ولسوف يلتحق مسلم بن الوليد بحاشية الخليفة وهناك يلتقى بأبي نواس الخراساني وهو أيضاً من الشعراء المسفين عشاق البيان والقودية وعباد الفسق والدعر الذين اجتازت مهازلهم ومبازلهم الاجيال منذ ألف عام ونيف ولا زالت تجد حظوة بين الناس حتى في هذه الايام .

لعمري لو أن بترون العظيم قد أهمل صدقة أن يتخيل
أو يصف عشاء « تريماخيون » الشهير فإن تلك
الصفحات كان يمكن أن تتدفق وتنفجر بما لا يقل عنها
وصفا لاذعاً من عبارات أبي نواس وكتابات المسفة .
وهكذا بينما كان أبو النواس يقول ما يستطيع قوله تاركاً
لعقل من يفهم أن يتصور ما لا يمكن أن يقال فإن قصائد
بن الأحنف الغرامية وغزله ينساب رقة ونعومة في نفوس
مریدی « أبيقور » كأنه العزف ومقطوعاته المشيرة
تضطرم خافقة كرقيق أجنحة الطير السابحة في الهواء !

واتجه هارون ذات يوم وهو دائم التنكر نحو وسط
أقل رعونة فقاده الحظ يوماً إلى مدرسة الطب التي أسسها
جده المنصور حيث تناقش نظريات أبقراط ومؤلف
« بينا كس » لجاليانوس ومؤلفات ديوسكوريدوس
وحيث أغلب من فيها من الطلبة يتابعون دراساتهم

بفضل ما تمده بهم زيدة من النقود. ثم زار كذلك
المعامل الفسيحة التي شيدها أبوه المهدى حيث توجد
جموع الكيماويين والمشتغلين بالأعشاب منكبين على تقطير
وأعداد العقاقير بتلك الدقة والمهارة التي لم تضارع في
علوم الصيدلة والتي عادت عليهم بالشهرة العامة والاعجاب
مدى أجيال عدة .

وفي يوم آخر قصد هارون وجعفر عرصة مدرسة
حيث استمعا إلى عالم متكىء إلى أحد العمد وهو يلقي على
الطلبة درسا يبرهن فيه على أن المربع القائم على وتر
الزاوية يساوى مجموع المربعات القائمة على الجانبين
الآخرين . وفي ذلك دليل على أن العرب في ذلك العصر
قد نبشوا قبور العلماء وأحيوا ذكرى جبار من جبابرة
الإنسانية وهو بيثاغورس .

وبينما كان أحد المشتغلين بالرياضيات يترجم عن

اليونانية الأجزاء الأولى من كتاب «العناصر»
لأوكليدوس الاسكندري كان رياضى ثان يضع أساس
الهندسة المسطحة ورياض ثالث يدرس هندسة المثلثات
المستقيمة ورابع يسير بتلاميذه فى طرق علم الجبر
المتعرجة. ومن أين جاء هؤلاء الرجال . أمن مدينة دلفوس
أو ساموس أو أثينا أو الاسكندرية . لقد جاءوا من الرقة
والكوفة ودمشق وبغداد أو من أقصى صحارى بلاد
العرب . ليس فى ذلك ما يهمل ما دام هؤلاء المشغوفون
ببلاد اليونان القديمة تلك البلاد التى نبذتها روما بتأثير
رهبانها فى ذلك العهد والتى تجملها وتناساها بيزنطة
لانشغالها بمنازعاتها الداخلية الدينية بسبب التماثيل
والصور . هؤلاء المشغوفون قد جمعوا وترجموا وأنقذوا
من الظلمات الأضواء التى طفرت من أدمغة عجيبة مثل
بيثاغورس وأرخيميدس وزينوفون وأوكليدوس . وانهم

الآن يبدرون بذور العبقرية اليونانية الخالدة في عقول العرب الخصبية . ويعدون تلامذة ومريدين ليخلفوهم من بعد . ولسوف يقوم بغتة من بين جموع هؤلاء الطلبة رجال مدهشون أمثال الحجاج الحاسب وأبي زيد حنين ابن اسحاق وعبد الله الخوارزمي وعلما الحساب الاخوة الثلاثة محمد وحسن وأحمد أبناء شاكر وآخرين غيرهم .

ففي مختلف المدارس ، وبغداد تكتظ بعشرات منها ، يختلط هارون وجعفر بالجموع الصاغية المنكبّة على الدرس . ويستمعان إلى تعاليم فلسفة حديثة متأثرة بالفلسفة اليونانية ، فمن وراء افلاطون الذي كان أحد الفلاسفة العرب يعلق على كتابه « الجمهورية » يبدو سقراط ، ومنها يعرفان خير ما أنجزته الانسانية . ومن وراء « كسينوفون » يتعلمان كيف ينظمان ويتقنان دقة الملاحظة وان كانت تلك الدقة لاتنقصهما ثم يتجلى امامهما

أرسطاطاليس أسمى الفلاسفة عبقرية وأوسعهم علما
وأكثرهم دقة وتدقيقا فيخط في أفق علماء العرب أساس
التفكير العظيم .

أما علم المنطق الذى وضعه أرسطاطاليس فانهم
يطبقونه ، وعلم ما وراء الطبيعة لأرسطاطاليس أيضا فانهم
لا يأخذون به وينوعونه وعلم النفس لأرسطاطاليس
الذى يحللونه بتلك الدقة واللباقة فانه سوف يكون نموذجا
لعلم النفس الذى وضعوه لأنفسهم . أما كتابا « السياسة »
« والأنواع » لأرسطاطاليس اللذان كانا موضع نقاش
حاد فيما بينهم فانهما قد أثارا حماسا عظيما ذى مغزى عميق
عند هذا الشعب المفكر الحساس لكل ما يخلقه العقل
من جمال

أو ليست هى روح أرسطاطاليس التى كانت تنطق
أمام هذا المجتمع الصامت المشدود خلال صوت ذلك

العالم العربي الواضح الذى يفسر « أن اللحظة لا تتجزأ ،
و « أن كل ما يتغير يتجزأ » ، و « أنه لا يمكن للشئ أن
يتحرك ويظل هادئاً فى اللحظة نفسها ، ... » و « ان الحركة
يمكن أن تتجزأ بالنسبة لحيز الوقت الذى تشغله وبالنسبة
للحركات المنفصلة لأجزاء الجسم المتحرك » ... و « أن
كل شئ أصابه التغير كائن بمجرد حدوث التغير . فى
الشئ الذى استبدل به » و « أن الوقت الذى يتم فيه الشئ
تغييره لا يمكن تجزئته » ، ومعنى ذلك « اللحظة » ،

وبعد ذلك أيضاً « يوجد لكل شئ وقت مضبوط
يتم فيه تغييره ولكن لا يوجد لشئ وقت مضبوط يبدأ
فيه تغييره » ، « الشئ يتغير فى كل جزء من الوقت الذى
يستمر فيه مدى تغييره » ، ثم « كل شئ يتحرك قبل
استقراره » ، « الاستقرار يتم مع الوقت » ، « لا يوجد للشئ
وقت محدود للاستقرار » ،

واذن ؟ فان الشيء طيلة الوقت المحدود الذى تستمر فيه حركته لا يستقر فى مكان محدود . فهل فى ذلك كله دحض لحجج زينون ضد الحركة ؟ لا شك فى ذلك .

وفى ضواحي الانبار . فى بستان وضيع يقيم فيه شيخ فلكى كان لا يشك بحقيقة شخصية الزائرین الجالسين أمامه فى ليلة هادئة صافية الأديم . كان هارون ورفيقه الذى لا يفارقه يستمعان إلى هذا الشيخ الذى كان يقودهما إلى عالم غريب بظواهره المدهشة المتغيرة غير المستقرة . لقد كانت الكائنات . فى نظر هذا الشيخ التائه فى غياهب اللانهاى . لا تبدو إلا كأجزاء من الذرة التى تتطور فى دائرة ضيقة ودورها الضئيل لا يتخذ — آثذ — إلا أهمية ملائمة للكرة المحدودة التى اضطرت إلى الخلود فيها . فما هى حياة الانسان فى نظر هذا الفيلسوف الباحث عن

اللانهاى ، أنها كذرة من الرغام تتحرك وتضىء فى شعاع
من الشمس . والزمن ليس إلا ما تستغرقه ضربات
الجلفون ببعضها . وعمله ليس إلا مناقضات مستمرة .
وفكرته العميقة أو الجوفاء ليست إلا أراضاء للعزة
النفسية والكرامة . أن العنكبوت ليفخر باصطياد ذبابة
والرجل ليفخر باصطياد رجل . ياله من زهو !

إن الذين اعتادوا النظر إلى السماء فانهم إذ يخفضون
أنظارهم نحو الارض لا يرون إلا نفوساً صغيرة عارية .
نفوساً صغيرة تحمل جثثاً تتخبط ببعضها عند مفترق
الطرق وتعطدم فى كل مرة بنفس الخواجز . إن هى إلا
كائنات خيالية تسعى لاهثة على عجل من أمرها شارة
محدودة فوق سطح الأرض التى لا تعد إلا نقطة لا أكثر
من نقطة المعدودة الفانية فى وسط هذا الفضاء غير المحدود .
وعندما تتوهم تلك الكائنات أنها تمنع بشرائعها وتؤذى

بتأنيها أو تنفع بمديحها وثنائها فما أعظم افتراضها وادعائها .
ليس للزمن حدود إذ أن عاطفة الانسانية تنعدم
عنده ولا يدهشه شئ . . لقد ضيق الله الأرض ولكنه لم
يضع حدوداً للسماء . وحياة الأجيال بأسرها لا توازي
سير تلك الابراج التي تعتبر ثوانها مئات ودقائقها آلافاً
وساعاتها ملاييناً من السنين . وهناك على مدى ملايين من
الفراسخ في ذلك الفضاء المجهول يوجد عدد من العوالم
المجهولة المختلفة بقدر ما يوجد من الكواكب المنظورة
وغير المنظورة فوق رؤوسها ،

ولا يلبث هارون أن يشعر بأنه ضئيل وتائه في
عظمة السموات أمام كتلة الكواكب المتحركة التي تسير
نحو غاية محدودة ولا يمكن لأية إرادة أن تحددها أو
تمنعها أو توقفها أو تحطمها . فإذا كان متشرباً بعظمته
وسلطانه فلسوف يشعر بأنه قد ضل وانكمش أمام قوة

الحجج التي يتمنخض عنها دماغ ثاقب يكشف بصفاته عن خبيثة النفس البشرية ويظهرها عارية زائفة .

كان هارون يخرج من تلك المحادثات الفجائية المليئة أو الجوفاء مفكراً متردداً وأحياناً مسروراً وغالباً بادی الاهتمام إذ يضيف إلى معلوماته ومعارفه . وهي واسعة . شيئاً جديداً . على أنه يخال أن شعوره الحاد وتأثيره لا يملك طويلاً ولا يترك أثراً ولا يتخذ غاية لجولاته المستمرة في جميع الأوساط وفي جميع الانحاء . وأن المرء ليتساءل إذن عما يلهمه أو يجتذبه ويضطره إلى البحث والتنقيب والسعي خلف شيء يتجاوز حاجة الحركة الملحة أو فضول الباحث أو عالم النفس . أهو صوت الشعب لن يسمعه يئن تحت نير البرامكة إلا عند ما يشعر أنه بالذات مهدد منهم في سلطانه . فلقد أوشك أن يكون عالماً نفسانياً إذ أنه لم يلاحظ منازعات أفكاره وتضاربها دون أن

يحللها وأنه لم يفهم إلا قليلا مشاعر الغير وشعورهم دون أن يعرف كيف يتقبلها . أما فيلسوفا فلن يكونه إلا قليلا وعرضاً إذ أنه يتدخل عند استفحال الأمور باحثاً عن حل لها دون أن يجده . لن يرى قط الغير إلا في مرآة نفسه ولا يرى نفسه خلال الآخرين إلا في مرآة أنايته التي لا تجاري ولا تضارع . وعلى هذا قد لا تكون جولاته سوى عادة تولدت عن الضجر أو ميل طبيعي يشعر به العاطلون بمن لا عمل لهم .

أهو نفس الرجل الذي يحاول وهو يتدثر بالخـز المذهب . أن يروح عن نفسه في حين أن حجرات قصره الخرافية تضم نيفا وثلاثمائة أو أربعمائة راقصة من أجمل الكائنات البشرية التي ابتدعتها الطبيعة وهن في انتظار إشارة منه لاشباع رغباته .

فبينهن السمر ذوات الابتسامات المقلقة والعيون

الخفية الساحرة . والشقر ذوات النظرات الزرقاوية
 الشبيهة بمياه الغدير الصافية المتلألئة وأقدامهن الخفيفة تكاد
 تلمس أعتاب الفسيفساء إذ يرقصن على نغمات بطيئة رقيقة
 أو سريعة مضطربة كأنهن أو هام تحملها نفثات الضجر كما
 تحمل العاصفة أوراق الشجر المتناثرة . لقد كن جميعاً إن
 سمرأ وإن شقراً يرقصن حول أحواض من البللور تسيل
 فيها مختلف عطور بلاد العرب وأعذبها نكهة وأطيها
 عرفاً . كن يرقصن حائرات والهات في ليالى الشرق الحارة
 وعضلاتهن متوترة وابتساماتهن جامدة . كن يرقصن له وله
 وحده . فاذا قدر للبعض من أجملهن أن يحمل قلبه على الخفوق
 أسرع من المعتاد فلن يكون ذلك حباً أو مجرد لهولان الروح
 بعيدة نائية عن ذلك المنظر المصطنع الوهمي . أن الخليفة
 يلهو .. ولكن هلا كانوا يرون أن الرجل يضجر ويسأم^(١)

(١) كما رويت كتب التواريخ والأغاني عن حفلات البلاط من شعر بأنواعه
 ورقص وسماع وشراب وما إلى هذا ولن يضير كل هذا أو بعضه ما قدما من
 التعمق في حل طلاسم أسرار الامبراطورية وما فيها من حكم عام أو خاص
 (جل من تنزه وعظم من عصم ولكنها صورة تاريخية للبيئة والاعتبار)

كان هارون يرأس حفلات وولائم تفوق حد الوصف . وإنه لمن الخروج على الحق والخط من كرم الخليفة العظيم الذى كان مضرب الأمثال إذا نحن حاولنا ألا نؤكد أن التاريخ لم يذكر كثيراً — فيما خلا الولائم الرومانية — أدعى إلى الدهشة والاعجاب من حفلاته ولو اقتصر أمرها على ما كانت تتطلبه من الاسراف والتبذير . ومن أمثال ذلك الاسراف أنه صرف أربعين مليون دينار بمناسبة زواجه من زبيده . فالاحتفالات التى أقامها أربعين يوماً قد تطلبت فى لغة الحاسبين مليوناً فى كل يوم . مع استثناء الهدايا والعطايا التى قدمها إلى أهله وذويه ووزرائه ورجال حاشيته وعبيده وجواريه وجنوده ومع استثناء الاحسانات التى وزعها على الشعب والخمسين ألف رداء الشرف التى أرسلها إلى ولايات امبراطوريته لكبار موظفيه والاشراف ومع استثناء بدرات اللؤلؤ الرفيع

التي نثرها تحت أقدام العروس .

بل هناك ماهو أدهى . فاذا أعجبته جارية - ومثل هذا الحادث كان يحدث كثيراً - فانه كان يدعوها أن تضع يدها في أكياس الأحجار الكريمة المقدسة في خزائنه ويهبها منها ما تنضم عليه أناملها . ولكن لما كانت يداها صغيرتين فان هارون كان يضم اليها يديه وهما في الواقع أكبر حجما وليس إلا الله يعلم ما كانت تخرجه هذه الأيدي مجتمعة وفي مرة أخرى شيد مقصفاً خاصاً لمحظية لم يقض معها إلا لحظات قليلة ولقد كانت تلك المحظية بعيدة الذكاء فأنجبت له ولداً هو المعتصم وعندما دفعها استياؤها أو نزعتها إلى القول « مولاي إن أبواب هذا المقصف لاتليق بمقر ملك » عبس وجه هارون واستدعى مهندسه وأمره أن يتخيل شيئاً لم يتخيله امرؤ من قبل ليحل محل هذه الأبواب أو كان جزاؤه الانتقال من عالم الوجود . وأتم

تعرفون كيف يكون ذلك فأخذ التعس يفكر في وسيلة
ينقذ بها رأسه فاستبدل جميع الأبواب بأبواب من العاج .
حقاً أنه لم يوجد من فكر في مثل هذا البذخ لا كسرى
ولا نيرون بل ولا كيلوباتره . لقد وصلتنا هذه الأخبار
من أحد مؤرخي هذا العصر فهو وان لم يراقب مولاه من
خصاص أبواب القصر أو يتلصص ليسمع ما يدور
خلفها فانه كان يعلم أكثر مما يعلمه سان سيمون من الخفايا
التي نقلها لنا عن لويس الرابع عشر .

ومع ذلك فانه لا يوجد من يستطيع أن يصف طيش
هارون الرشيد وولائمه وحفلاته غير رواة هذا العصر
ومؤرخيه الذين تولتهم الدهشة وتملكتهم الحيرة من ذلك
الترف ووقفوا مشدوهين أمام الثياب الثمينة والجواهر
النفيسة وأمام ألوان مختلف الأطعمة النادرة التي كانت
تقدم في أطباق من الذهب المطعم بالأحجار الكريمة

والميناء وتحملها الجوارى . لقد كانت هذه الحفلات تكلف
دخل ولاية بحذافيرها إذ كانت الأكواب مصنوعة من قطعة
واحدة من الفيروز أو الزبرجد وهى أكواب كان السقا
اليونانيون والمزديكون يملأونها برحيق الكرم المحرم .
فيجرعها المدعوون كالحكماء الذين ثقل عليهم حمل حكمتهم
فألقوا بأنفسهم فى جهنم ليتزهاوا بين نيرانها قليلا !

وهكذا فمن العبث أن يتكلم الفلاسفة عن الفضيلة
بألفاظ مريرة فان أبا النواس كان رابضاً فى ركن وهو
يتوسل الى الليل أن يلتمس من الفجر أن يؤخر ظهوره
لأن تلك اللحظة كانت جسد جميلة . أما الندم فلن يأتى إلا
بعد أن تبدأ عوارض سوء الهضم وتذبل أكاليل الأزهار
وتنطفئ الشموع .

وهو نفس هارون أيها الأصدقاء الذى كان لبعض
أيام خلت أو بعد بضعة أيام يرافق صفيه الذى لا يفارقه

إلى أحد الأحياء المجهولة الوضعية ويقبل عن طيب خاطر
أن يشاطر أحد مضيفيه طعاماً حقيراً من خبز الجاوادار
أو لبن الماعز .

وهو أيضاً نفس ذلك الرجل الذى كان يجلس على
عرش يساوى وحده فدية ملك محاطاً بكبار وزرائه
وضباطه وخلفه خمسمية عبد بين أبيض واسود . لقد
كانت هناك ثلاثين ألف طنفسة من الطنافس المشغولة
بالذهب والحريير تحلى جدران تسع قاعات وهى قاعات
كان يجتازها السفراء والعظماء عندما يقابلهم الخليفة .

ولقد روى لنا سفير بيزنطى أنه عندما وصل إلى
بضعة فراسخ من بغداد وبعد أن مرّ أمام جيش مؤلف
من ١٨٠ ألف رجل مدججين بالسلاح قابله عند باب
العاصمة الوزراء وقدموا له أغخم الهدايا من لدن الخليفة
منها مائة جواد أصيل مجهزة وثياب فاخرة له ولحاشيته

ولاحظ السفير أن ثمانية وعشرين ألف طنفسة تغطي أرض الطريق الذى قطعه مع حاشيته إلى القصر وأن عدداً من السفن المزينة بأنغر الزينة كانت تمر عباب نهر الدجلة وأنه سمع بداخل حدائق القصر زئير مائة أسد رابضة الى جانب حراسها الأفريقيين فكان منظرها يتعارض ويتناقض مع بهاء المنظر الآخر وعظمته^(١)

كان البطريق البيزنطى متمتعاً بأدق أنواع الترف ولكنه لم يتمالك نفسه أزاء ذلك من أن يقف مشدوهاً محققاً عند رؤية تلك العجائب ثم تزداد دهشته عندما يلاحظ أن هذا الملك الشرقى الذى انحنى أمامه فقابله بابتسامة لطيفة رقيقة . ولكن سامية . تمكن أن يحيط عرشه بتلك الآبهة والعظمة المروعة التى تضارع ما يحيط

(١) ولربما كانت سامية من أعاجيب الفكر السياسية كالتى جرت بين معاوية وعمر بن الخطاب حين استقبله بيلاذ الشام بعد فتحها.... ولكن ما أخرى الحزم والجد من التفاته والعظمة من غير نقد وما أخرى السياسات الخرفاء والنفخنة من الفناء وسو القبه

بعرش امبراطور بيزنطة ان لم يكن أكثر منها .
لا شك أن ذلك كان مؤلماً للامبراطور البيزنطى
ومكدرآه « لسفيره » واذن فتلك الهدايا والحفاوة وتلك
الابتساماة لاتعبر عن شيء ولا تدل على شيء . ولسوف
يستمر النزاع بين بغداد وبيزنطة .

وهناك سفير آخر هو تيرى سفير شارلمانى الذى لم
يستطع أن يخفى إعجابه بهارون ذلك الفارس العظيم الذى
كان يمتطى صهوة جواد لا يقدر بثمن ويسير فى طليعة
حاشية مهيبة من الأمراء والوزراء والفرسان ومئات الخدم
والحشم ويتبعه رهط من العبيد وحملة الطبول السود
والصقور الشهيرة التى تتطلب ترويضها أموالاً طائلة
ويذهب لصيد الدراج فى غابات الرقة أو يسعى خلف
كلابه وراء فريسة أخرى فى السهول العراقية وفى أيام
الاستعراض مادام الأمر لا يخرج عن كونه استعراضاً

إذ لم يعد يمثل الدولة العباسية ذلك الفارس والفتاح الرهيب بل ذلك الخليفة الجالس الذى يتسم ووجهه يطفح بشراً . كان يحيط هذا الخليفة المائة وثمانون ألف مقاتل وقد انتصبوا فى ركابهم الفضى وهم يحملون الزماح وعدداً لا يحصى من الأعلام أو بعبارة أخرى أصح مائة وثمانون ألف جندي مرتزقة كانوا يحيونه وأنظارهم متجهة نحو البرامكة ! فذلك الخليفة لا يشبه فى شيء ذلك الشاب الذى يجب أن يكون هارون الحقيقى والذى لا يشعر باللذة الحقيقية إلا فى لحظات فراغه التى كان يقضيها من ناحية مع جعفر شاهد حياته الخاصة الوحيد ومن ناحية أخرى إلى جانب تلك الفتاة التى كان يستضىء لطفها وذكائها وهى أخته العباسية .



أسرة بني العباس

٣

تقوى زبدة وعظمتها . العباسة أخت الخليفة . إحدى
حبل هاروت الرشيد . زواج عذرى باكره بين جمفر
البرمكى والعباسة . تحالف ثلاثي غريب . مفاجأة . قوة
القدر . طمع البرامكة . شك الزندقة

لا شك فى أن العباسة هى الكائن الوحيد فى العالم
الذى كان يحسن فهمه فكان يقدرها فوق كل شىء . لقد كان
نفوذها على هارون كبيراً فكان يوازى نفوذ جعفر . وهو
عظيم . كما كان أحياناً يعلو على نفوذ زبدة وهو أيضاً كبير
كانت زبدة وهى من العباسيين مثله إذ كانت حفيدة
المنصور على جانب عظيم من الكبر والأنفة وهى تمثل
الزوجة الجميلة التقية الصالحة المتمسكة بأهداب الدين ولقد

كانت بفضل صفاء ذهنها وسعة اطلاعا . تعتبر قوة سياسية ممتازة بل تكاد تكون شريكة في ذلك العرش الذي ربما كانت تشعر بأنه يتقوض تحت ثقل البرامكة الذين تكرههم بقدر ما كانوا لا يحبونها . وهكذا فإنها كانت تحتقر جعفر لتظاهره بمظهر الأمير الكاذب ولاعتزازه بنفسه ثم ادعائه بأنه الوصيف الذي لا يناله شيء . لقد أجمع المؤرخون على تأكيد حقد زيدة للبرامكة وكرهيتها لهم ولكن واحدا منهم لا يستطيع لانعدام البراهين والوثائق القاطعة أن يوضح أو يحدد حصتها في تلك المسؤوليات التي تؤول إليها ولا النفوذ الذي يعزى إليها ويقال إنها بذلته لشير سقوط تلك الأسرة ونكبة المحظي الشهير الذي لاشك في أنها قد فطنت الى أغراضه السرية وما يضره في خبيثة نفسه .

ولم تك زيدة سامية بعظمة أعمالها بل هي تستحق

التمجيد . إذ أنها . بفضل ثروتها الطائلة الخاصة . قد شيدت المدارس والملاجئ . والحمامات والاسبلة والخانات . وهي التي نفذت ضمن ما نفذته بمحض ارشادها وعلى نفقتها الخاصة بناء النفق الجميل الذي يجلب المياه من الطائف الى مكة ويبلغ طوله ٦٥ كيلو مترا ولا يزال مستعملا حتى أيامنا هذه كما أن المدينة المنورة تدين لها بمثل هذا العمل بحفر الآبار وعذوبة المياه وأجهزتها .

وفي عام ١٣٤٩ أى بعد مرور ٥٤٠ عاما لحكم الأميرة نقرأ فى رحلات ابن بطوطة الشهير الى مكة تلك الفقرة الخاصة بزييدة . ويرى الناظر أيضاً صهريجاً كبيراً يورد الماء لجميع الحجاج وهو أحد ما شيدته زييدة رحمة الله . أن جميع الفناطيس وجميع الصهاريج أو الآبار الموجودة فى الطريق بين مكة وبغداد وهى آثار تدل على كرم زييدة كافأها الله وكرم مشواها فلولاعنايتها بذلك الطريق لما

طرقه أحد .

ان حسناتها التي لا تنضب تعم جميع أنحاء
الإمبراطورية فكانت تعنى برعاية الآلاف من المعوزين
وتمد بالمال أكثر من مؤسسة عليية وتحمى أكثر من عالم
وتوزع الصدقات على مئات من الطلبة الفقراء وتشجعهم
لقد كانت تقواها عظيمة ولذلك وقفت لنصرة المحكوم
عليهم والمضطهدين وقد حولت يدها سيف الجلالد عن
أكثر من رأس بريئة .

فاذا كانت الامبراطورية والجيش تهملان للخليفة
العظيم . فان آلافا من الأيدي والقلوب كانت تتجه عفوا
نحو زيدة التي كانت تعطى بصدر رحب وتجزل العطاء
ولا تكف عن الاحسان وأنها لم تظهر لنا قط أكثر تمسكا
بأهداب الاسلام الا عندما نطقت بتلك العبارات المأثورة
التي نقلها إلينا التاريخ بعد مرور ألف عام . وهي خير مثال

على السخاء والكرم الحاتمي ، سأعطى بغير ما تميز أو
تفريق بين مذهب أو جنس وسأعطى كل الذين يمدون
أيديهم ،

لقد كانت مهيبة أمارة حتى عندما تدعوها اللياقة الى
الانحناء أمام الخليفة وكانت رنة صوتها لا تفقد من ثباتها
وامارتها عندما تقول « لقد أمرنا أن يبني جناح جديد
لمدرسة الطب في جنداى شاهبور وأعطينا الأوامر
المناسبة » لقد أصبح الأمر نافذاً غير قابل لرد أو نقاش
أليس كذلك . وعندما تقول أيضاً « يا أمير المؤمنين اتى
أرغب فى أن يبني بالرى ملجأ للمعوزين وفى الكوفة خاناً
للمسافرين المحتاجين لتخليد ذكرى بيت بنى العباس ، انها
رغبة صادرة فى شكل أمر لا أكثر ولا أقل !

كانت زيدة تجيد ذلك الفن الذى يمتاز به المرأة
الشرقية وهو معرفتها التامة باصدار الأوامر فى أنفة

ولكن بصوت عذب وما هو أدهى من ذلك. أنها كانت تعرف كيف تتلاشى أمام هارون وهو الأمير والأمير هو الأمبراطورية بحيث كانت تؤثر بتصرفها هذا في الزوج المنقاد الى نزعات نفسه وتؤثر فيه حتى لتكاد تخلجه فيحنى أمامها بدوره . فهل كان يحبها ؟ لعمرى أن أمثال هذه النساء لا يحب عادة ولكن يلجأ إليهن عندما تمر أعاصير الافتتان والدوار . إن قلب هارون لأشبه شئ بمحطة يمر فيها جميع الناس فى اتجاهات معلومة أو مجهولة .

أما الأمر الموثوق منه هو أن زيدة تفرض رغبتها عليه وأنه يعجب بها وما هو أكثر وثوقا هو أن العباسية كانت تشغل فى ذلك العهد مكانة بارزة فى حياته . فهو لم يكن يخفى عنها مشاغله وهمومه ومشروعاته . ولم تكن تمر به مسائل هامة سياسية أو اجتماعية دون أن يعرضها عليها ويناقشها أو يحلها أو يقررها بدونها وكذلك لم تكن تقع

له أمور تافهة أو مفرحة دون أن يطلعها عليها لتلهو أو
يشاطرها إياها .

كانت العباسة تعرف كيف تحذر وتوعز وتقنع
وتغري إذ كانت تتمتع بذكاء وقاد موهوب تنتهز الفرص
في حينها وتشرف على جميع الأمور بدقة ولباقة السياسى
المحنك الذى خلق ليحل أشد المشاكل تعقيداً وأكثرها
غرابة . وكانت تتمتع بسحر حظ والهام خاص للنظر الى
أدق المواقف بطريقة خاصة لتعطيها شكلاً ملائماً لرغبتها
الشخصية أو تجد لها حلولاً ما كان ليتنبه إليها سواها . لقد
كان يظفر منها نوعاً من القوة الجذابة التى تؤثر
وتسحر وتأسر .

يقينا أنه كان يوجد بين هذا الأئخ وتلك الأئخت
ما هو أمتن من رابطة الدم أو القرابة . لقد كانت توجد
بينهما صداقة مؤثرة صريحة نادرة وثقة متبادلة هى أيضاً

نادرة . ولن يجد هارون عند البعض أو عند آخرين تلك
الراحة أو ذلك الارتياح وهدوء البال الذي يشعر به
بالقرب من أخته مع استثناء جعفر الذي سيجعل منه
وسيطا بين ضميره وبين نفسه . على أن الساعات التي كان
يقضيها الى جانب العباسة كانت تبعده عن جعفر والساعات
التي كان يقضيها مع جعفر كانت تحرمه من صحبة العباسة .
وهو مع ذلك كان لا يستطيع أن يتخلى عن هذا أو هذه .
ولذلك تخيل حوالى عام ٧٩٧ وذلك ارضاء لرغبته
الشخصية وراحته وأنازيته أن يجمع حوله هذين الرفيقين
الضروريين لحياته بطريقة لا يخرق بها حرمة شرائع اللياقة
بأن يزوج العباسة من جعفر حتى يتسنى لهذا الأخير أن
يحضر شرعا اجتماعهما ومحادثتهما المشتركة على أن تلك
الوسيلة الشرعية التي لا تخرق حرمة شرائع اللياقة أو الرأى
العام السخيف الذى حاول هارون الدفاع عنه كان يخرق

حرمة الشرائع الضرورية للحياة البشرية ويتحدى الله في
أرادته . إذ قد تقرر بعد هذا الزواج الظاهري المشروع
ألا يتم هذا الزواج ويظل عاقراً حتى لا يقال أن أميرة من
بيت الخلفاء العباسيين قد تزوجت من أحد أتباعهم .

إن تلك الحيلة السخيفة التي تخيلها هارون لـهى أحد
الدلائل الظاهرة الجلية على عدم خبرته بعلم النفس (١)

ففى تلك الحياة الغريبة غير العادية المخلة بالأخلاق التى
كان يعيش هؤلاء الثلاثة لو قدر أن يعد فى المستقبل
أحدهم زائداً عن الحاجة فلا شك أن هذا الزائد سيكون
هارون . ولكن لم يكن لهارون على الأقل أمتع من تلك
الساعات التى كان يقضيها بارتياح تام وسرور لا يضارع
بصحبة جعفر والعباسة فى ظل أزهار حدائق قصر الأنبار

(١) أو هو عالم نفسانى ولكنه صمم على إبراز الأقدار مدعماً بالحجج
والبراهين على حقيقة التضحية البرمكية وما كانت أغناه ، ولكنها تعد مأساة
الخطيئة أو سخرية التاريخ أو هى نتيجة غلطة حتمية للتخلص .

اليانعة حيث كانت المناقشة تدور حول الفروقات
الموجودة وغير الموجودة بين الذكاء والعاطفة .

ولم يك هارون فيلسوفا ولكنه كان يستمع
بالمناقضات الفلسفية التي يناقشها ثلاثهم كما كان يستمع بغرابة
ادراك العباسة لها والطريقة البارة التي كانت تدبر بها
المناقشات على اختلاف أنواعها . وليس أحب الى نفس
الرشيد من تلك الساعات القصيرة التي كان يقضيها في
مكتبته الفاخرة في بغداد وهو ينصت الى العباسة وهي تلقى
أبياتاً من الشعر كانت تعرف كيف تثير بها النفس
بنبرات صوتها .

لسوف يكون لتلك الساعات وقع سيء ومؤلم على جعفر
لأن السحر الذي كان ينبعث منها ويؤثر فيه يوما اثر
يوم لا يلبث أن يصبح لديه ضرورة ملحة فيختلط بدمه
كالسم . ولسوف تأسر نغمة هذا الصوت كيانه وتأخذ

عليه جميع مشاعره فتوقعه في حبالها .

لو أن هذه المسألة قد دبرت للانتقام والوقية
- وهذا أمر غير معقول - لما كان هناك انتقام في تلك الحالة
أحكم تدييرا في تلك الساعات السعيدة لهارون والمؤلة
لجعفر إذ أن العباسة لم تكن توجه اليه الحديث مباشرة .
وسواء أكان ذلك حياء أو كان دلالا فانه كانت تخفض
دائما أنظارها الى الأرض في حين أن صوتها كان ساحرا
مؤثرا وكانت أصابعها الناعمة لاتدل على أى قلق أو
اضطراب .

وكانت الأفكار المتناقضة تتضارب في مخيلة جعفر
المضطربة وتعقبها المشاعر المختلفة وإذا كانت يده في
بعض الأحيان تتقلص فجأة على قبضة خنجره المرصعة
بالأحجار الكريمة . فهل كان ذلك منه ثورة
اجرامية أم أن ذلك كان لا يعدو حركة عادية لمن يحاول

أن يتناول شيئاً يده عسى أن يستعيض به عما لا يستطيع
أن يدركه فيحافظ على هدوئه وسكينته .

وهكذا لم يعد يبق أمام جعفر ليتحاشى هذا السحر
وتأثيره الا الانغماس فى الملذات ليبعد عنه صورة العباسة
التي كانت تلازمه . لم تكن تلك الوسيلة من نوع جديد .
ولكن ماهو جديد . إذا نحن صدقنا ما نقله الينا الرواة
بدون أن ندهش لا باحسة هذا العصر . هو الوسيلة التي
اكتشفها والد جعفر . كان يحيى البرمكى لا يأل جهدا ليبعد
عن مخيلة ابنه خطراً كان واثقاً من وقوعه فكان فى كل يوم
يهبه حورية جديدة . ولجأ البرمكى الجميل الى الخمر عسى
أن يجد فيه ذلك المسكن الذى يلجأ اليه اليائسون . وظل
هذا الامر شهراً وأشهر . ولكن نسيان الرغبة الشرعية
التي كان هارون يحول بينه وبينها لن تأتية عن طريق
الفسق والعريضة ولا عن طريق السكر وبقينا انه لم

يشعر الا بالقليل من اللذة دون أن يرضى به مطلقاً .
ولأول مرة فى حياته . ولا شك فى أنها حياة تافهة
تلك الحياة العاطلة الزائفة القائمة على المنفعة والكسب
والقسوة والاحتدام وشهوة ليلة لاتعقبها ثانية . وجد جعفر
نفسه ازاء عنصر قوى مجهول . ذلك الشعور الذى يستولى
على المرء ويهزه ويشير فيه تلك التقلبات غير المنظورة وغير
المعقولة . وتلك القوى التى تحنى الرؤوس المتجسرة .
وتحمر لها الوجوه الكالحة وتبعث شعور الحياء من لحده
وتطهر اللوثة القديمة . ولأول مرة فى حياته شعر بنيران
الآلم الأدبى التى تلهب الأحشاء لتطهر الأوراق وتحطم
لتصلح وتجدد وتتولد لتخلق رباط الجمال وما الجمال
الا ما هو الهى فىنا ...
انه الحب .

ان للحب وحده تلك السلطة التى يمكن بها ايجاد محور

قوى تدور حوله وتنمو واحدة تلو واحدة جميع المشاعر المتناقضة التي تتألف وتتأخى فى انسجام عجيب فى ظل كل منطق وتجد فى الحب عقلاً ممتازاً . ان ذلك العقل الممتاز كائن منذ أمد بعيد وإذا لم أخطئ فانه من عهد آدم الذى تعقدت حياته بجواء التى عقدت بدورها كثيراً من الأمور .

ان للحب وحده ذلك الامتياز الفريد الذى يضعف الأفوياء ويقوى الضعفاء ويشجع الجبناء ويجعل من الشجعان جناء . ويوقظ المطامع الراقدة ويوعز بالمخاوف فجأة ويثير الشكوك الغريبة . ومن مميزات الحب السحرية أن يحجب البؤس والشقاء ويسمى النعماء والرخاء . وهكذا فان جعفر الذى وصل الى قمة الرخاء كان يهوى الى أعماق الشقاء البشرى فى ساعات الهناء التى كان يقضيها بصحبة الرشيد بحضرة العباسة كان ينتقل بغير ماتطور من

الحماس المكبوت الى السخط التام ومن اليأس المدلهم الى
الامل الكاذب ومن السخرية المحتدمة الى عدم المبالة
لكى يتدرع . ولكن عبثا . ضد ذلك السحر المشثوم
فكان يجب عليه أن يراقب انفعالاته ويكبت عواطفه
الشائرة التى تكاد أن تنفجر وتفضحه بإشارة أو كلمة
فتكون سبب هلاكه .

وهل لم يك فى الواقع هالكا حين قدر له فى ذات
مساء من أمسية الحزن والشجن أن ترفع نحوه لأول مرة
أهداب عينيها الناعمة فينتفض بغته ويشعر بسرور عظيم
مجهول إذ يتوهم بأنه قرأ فى تلك النظرة التى لم يجد لها شيئا
ما يدعو الى الاحتمالات والامل .

أم عساه أن يكون قد أخطأ لسوف يسائل نفسه
ويكرر هذا السؤال دون أن يجد حلا أو جواباً .

لا يوجد بين النعم والجحيم سوى خط رفيع كما

تعلون فاذا كان جعفر قد أدرك باب النعيم فهل الجحيم هو
الذى فتح له أبوابه فجأة ؟ ١٩ .

لئن كنتم قد قرأتم « دانت » — « دانت » ، العبرى
الذى جاس متفرجا فى أنحاء جحيم لاقرار له ولا نهاية
وقذف فى جوف الأعماق باللعنات الصائبة — لوجدتم
أن جعفر ، وقد تمسك بأهداب حلم على حافة هاوية يشبه
شبهها غريباً بعض تلك الوجوه التى جاء وصفها فى « المهزلة
الالهية » ، لقد كان على شفا اليأس عندما فاجأه بهيص من
الوهم ثم تناولته الشكوك بغير ما رحمة حتى كادت تحطمه
لقد أصبح على وشك الانهيار انهياراً تاماً قبل أن يشعر
بذلك اليقين الذى ملأ مخيلته بالاضطراب . وعندما تقف
نظرة العباسة القائمة الرقيقة عليه فى حزن وعندما
لا يرى جعفر فى تلك النظرة غير الحب فانه لا يرى
فى نهاية أحلامه سيف عزرائيل يلمع ويسطع ثم تقف

تلك النظرة على هارون ولأول مرة يشع منها بريق
من الحقد . فهل لاحظ هارون تلك النظرة ... كلا .
ان هارون لن يفهم معنى الملاحظات الدقيقة
والملاحظات والايعازات التي كانت تثيرها العباسية في
الأوقات المناسبة لتبعد الشك وتسترعواطفها
واختلاجاتها الحقيقية ، كانت العباسية تمثل دورها بمهارة
فائقة فلا يفضح شيء من سرها في بادئ الأمر على الأقل
وأنها لن تبدو مالكة لعواطفها ولا أسمى منها إذ كانت
تهاجم بثبات مدesh خلال مناقشتهم آراء هارون فتحيده
وآراء جعفر فتناقضها ولكنها كانت تنقده بجرأة وحكمة
كالقائد المخنك في ساحة المعركة . وهكذا كانت تسيطر
على أحدهما وتشله كما كانت تجتذب الآخر وتقيده .
وكانت تسحرهما وتقودهما الواحد تلو الآخر في حركة
اجماعية وتقبض عليهم بين أناملها !

انها لحيلة فذة سامية تقدم عليها امرأة عاشقة لتضلل بها من يمنعونها الحب لأنها تحب .

ان « أوفيد » على ما أظن هو الذي قال لنا في « استحالاته » ان النظر أعطى للرجل ليخونه . وفي ذلك ما يدعو الى بعض الشك ثم جاء « تاليران » وأتم سلسلة السفهاء الخالدين بأن أوحى للانسانية بتلك الحجة المخيفة بقدر ما هي صحيحة . لقد أعطى اللفظ للرجل ليخفي به فكرته ، انها وجهة نظر فحسب . وهو تفسير نسلم به أو لانسلم به طبقا لحالتنا النفسية أو الفعلية . ولقد صدق كل من أوفيد وتاليران كما أنهما لم يصدقا .

فاذا كنا لانستطيع أن نعارضهما لأن أحدهما نظر الى الأمور بمنظار قريب جدا ولأن الآخر ذهب بقوله شوطا بعيدا فانتا على نقيض ذلك يصعب علينا أن نتكر ان المرأه قد تحلت بشيء اضافى من الخبث والدهاء ليتسنى لها أن

تفتح الأبواب المغلقة أو ليكون لها بمثابة « بوصله »
— لو فضلتم هذا التشبيه — لنمخر بها عباب اليم وتلافي
الاصطدام بالصخور المهلكة في جميع الأماكن الخطرة
والمواقف الخطيرة .

وهكذا عند ما كتب أحد الشعراء . لا أذكر من هو
ولا بد أنه كان عاشقا متيما ذلك البيت الذى تنبعث منه كل
الأحقاد الماضية وتضطرب فيه كل مخاوف المستقبل .

إن النساء شياطين خلقن لنا
نعوذ بالله من شر الشياطين

اتنا نصدقه بغير نزاع ومع ذلك فقد وجد من عارضه
وسخر منه وهو من أتباع المرأة إذ يقول :

إن النساء رياحين خلقن لنا
وكلنا يشتهى شم الرياحين

يمكن اسناد هذين البيتين الى جعفر بالذات لو كان

شاعراً . ولكن جعفر لم يكن الا عاشقا حيل بينه وبين
الحب وثائرا الى اليوم الذى دارت العباسة المفتاح المزيف
الذى تحمله فى جميع الأقفال حتى إذا انفتح واحد منها
أمامها استطاعت أن تهرب من سجنها .

ان المؤرخين مترددون بشأن الوسائل الجريئة أو
الخفية وإن كان يمكن تبريرها وعذرها لشرعيتها التى
اضطر الزوجان الأسيران أن يلتجئا إليها ليجتمعا . وانهم
لكذلك يسردون الوقائع ولا يعلقون عليها إلا
بالتخمينات لا أكثر . وذلك يرجع الى أن الرواة قد
أفسدوا التاريخ وغيروا معاملة . لأن الخرافات القائمة على
الروايات قد نقلت إلينا نبذا متنوعة . بقدر ما هى وهمية
وغير معقولة بقدر ما هى محتملة فكلها غير معقولة كما أنها
معقولة وكل واحدة منها تخالف الأخرى .

على أنه لم يوجد مؤرخ أو مستشرق ممن ضربوا فى بيداء

التخمينات واحدا لم تدفعه مخيلته بعد إذ لم يهتد إلى الحقائق
الراهنه الى اقتفاء ظل خفي « لعباسه » عاشقة فكلهم ابتداء
من لمسيه الكاتب الخيال المتحمس حتى جاتيانى أمير
تيانو الذى اشتهر بشدته ودقته فى البحث عن خرافات
العرب وتدوينها يعلمون أن ما يستطيع أن يفعله السحرة
يمكن أن يفعله القلب بقوة الحب وجرأته . وأن مثل هذا
الحب سوف ينتج عنه ذلك الحادث التاريخى أوداك . وهم
لذلك يتعقبون آثار العباسه بذلك الانفعال الذى ينم عنه
قلم المؤرخ الطبيعى على الرّم منه . قبل ان يقفوا أو يبعدوا
على أسف منهم الخرافات التى تكمل تلك الواقعة الغرامية
التي كثرت تفاصيلها ولكنها ظلت مع ذلك غير مقيدة
فصارت قابلة للشك والطعن . على أن كل مؤرخ صحيح .
بقدر ما يستطيع أن يكون مؤرخا مدققا . على علم بعوامل
النفس سواء أكان مغرضا أو غير مغرض أو شاهدا عاديا

يتظاهر بعدم المبالاة ككليمان هيوارت الذى يقول عن هذه المأساة . يقول البعض أنه يجب البحث عنها فى حادث خيالى يسردونه عن العباسة أخت هارون ومرشدته التى زوجها من جعفر ...

ان هيوارت يلبس فى شيء من الهلع فاتحة المأساة إذ يقول « لقد اتفق على أن الزواج لن يتم » ويؤكد « ان ما أرادوا أن يمنعوا وقوعه قد وقع فعلا » وبعد ذلك يوضح فيقول « وعنى سرا بتربية الطفلين اللذين ولدا ، ثم يتمالك إذ يضيف « ومع ذلك فالحادث لا يخرج عن كونه رواية لطيفة ، ثم يبحث عن سبب « ومن يدري ربما كانت هذه التهمة تستر خلف تهمة الزندقة التى وجهت فى تلك المناسبة لاشك فى أن الخطر كان داهما ليضطر الخليفة الى اعدام أحب الكائنات الى قلبه ، ثم ينتهى بمناقضة نفسه إذ يقول « ان سبب التهمة من أغمض الأسباب وانه ليحسن

البحث على السبب الاساسى لتلك الفاجعة التى ظلت
شهيرة فى بعض العوامل الغرامية ،

هذا ما يعد غير واضح وإن كان مع ذلك
واضحاً للغاية .

ان احدى الروايات الدارجة التى نقلت الينا عن
ذلك العصر تقول بأن العباسة قد حلت فى احدى الليالى
محل الجارية الجديدة التى كان يحبى البرمكى يقدمها كل ليلة
الى ابنه . هذا أمر محتمل أو على الأقل تلك هى الرواية
التي يسلم بها المستشرق بيرون إذ يقول ، لقد تحلت
العباسة بالحلّى والجواهر كما تفعل الجوارى وجاءت عند
أم الوزير وأدخلت على جعفر ،

ان رواية تأسرنا ببساطتها المؤثرة ويرون هذا الذى
يمكن أن يسمى عشيق العباسة بعد الموت هو ذلك الرجل
الذى يتعقب فى سكون الليل وخلال القاعات الفسيحة

الخالية والأروقة المتعرجة . خطوات العباسة المضطربة
المتتدة . ويمكننا أن نستنشق من وراء عباراته نكهة المسك
التي تضوع من ثيابها المستعارة وتسمع قعقة أساورها
ونرى الاحمرار الذي يعلو على جبينها الرقيق المحجب
ونشعر بدقات قلبها الحزين بل ونرى حركتها العصبية
الأمارة التي تبعد بها الستر الثقيل لتلقى بنفسها بين أحضان
جعفر . وهذا الجعفر الذي يصوره لنا يرون كان عديم
الادراك فاقد الحواس زائغ البصر بفعل الخمر . كان فاقد
الشعور بفعل النيد فلم يلحظ أن الجارية كانت زوجة
وهنا يقذفنا يرون المؤرخ الموجز بتلك العبارة الصاخبة
الفجائية . بأي حق . ولأجل سبب تافه شخصي يهزأ
الخليفة من أخته ومن فتاة ميعة الصبا والجمال . لقد
كانت على حق في أن تخدع الخليفة بل وأن تجاوز
بحياة زوجها ... »

أما عن الخليفة الذى حق للعباسة أن تحذعه فان
يرون لا يبحث ولا يحاول أن يجد أية أسباب مخففة
لعظم جرمه . وأما ذلك الزوج الذى جازفت به العباسية
فانه لا يتمتع مثلها بكنوز الشفقة التى يحيطها بها المستشرق
الشهير .

. . .

ومهما يكن الأمر فى ليلة من شتاء عام ٨٠٠ حمل
أحد العبيد سراً الى الحجاز ابن جعفر والعباسية الشرعى
وان لم يعترف به وبعد مضى عام آخر سار ولد آخر فى
طريق الحجاز التى سار فيها شقيقه الأكبر قاصدا مكة
وهى الملجأ الذى لا تنتهك حرمة .

ومنذ عام ٨٠٠ تبدل موقف جعفر البرمكى تبدا
محسوسا ثم تغير تماما فلسوف لا يحاول أن يتظاهر سواء
أكان رعايه أو حرصا بذلك الاحتشام الذى كانت تتطلبه

مكاته كوصيف يغدق عليه الخليفة النعم . وزوج العباسة
المتحبط وإن كان مغلا ووزير خبيث داهية عظيم النفوذ
وإن كان مكروها من الشعب سوف لا يحاول شيئا من
هذا كله ولو بدافع من غريزة البقاء إن لم يكن بعامل الفطنة
والذكاء ، لقد تجاوزت إرادته كل حد فكل ما كان يصدر
منه من الأقوال في ساعة كدره أو غضبه كان يعد بمثابة
أحكام رادعة وقرارات لاتنقض وإذا انتقل سار في
ركابه حرس مؤلف من خمسمائة فارس بثيابهم المذهبة
فيظهر بمظهر أمير . وكان عيشه في قصره يسكاد يضارع
عيش الخليفة نفسه . وإذا كانت عطاءاته تشبه الانعامات
الملكية فإن كبرياه وتعاضمه ينمان على أنه كان وصوليا .
ولذلك فإن غرامه للعباسة قد ساعد على إثارة طمع كامن
ولا يليث أن يحطم الحواجز المحيطة به ليطنى على كل
شئ حوله .

لقد كان جعفر بمثابة ملك دون أن يكونه .
وقد اتهمه مؤرخو ذلك العصر بالخيانة العظمى
وهذا اقتراض معقول .

ما الذى كان ينقصه لادراك غايته بعد أن ضمن ذريته
فنجلاه اللذان كانا يريان سراً وإن كان هذا السر شائع
بين الجموع ولا يحمله إلا هارون نجلاه اللذان أعقبهما
من العباسية ابنة الخلفاء على الرغم من جميع المحظورات .
لسوف يتخذ منهما حجة يتذرع بها . إذا كان بحاجة الى
حجة . أو يزكى بها . إذا كان بحاجة الى تزكية . المؤامرة
التي يحيك خيوطها للثورة على العرش . ان نجليه يؤلفان
سلالة ملكية هي سلالة المباشرة ويقربانه من ذلك
العرش الذى يود لو يعتليه هو البرمكى بفضل العباسية
وبسبب العباسية لأحد نجليه .

ومع ذلك فلن يكون هذا الأمر أول أو آخر ما شهده

التاريخ عن مؤامرة من هذا القبيل أو حرمان أو اغتصاب أعقبه نجاح وذلك النجاح يعززه سبب رئيسي مشروع هو المطالبة بالعرش من فرع نسائي لقراية غير عصبية من أسرة كفت عن الحكم أو مجرد الاقدام على عمل جرىء والمطالبة بحقوق هي وليدة الصدفة أو ظروف يقودها الحظ الاعمى الذى يفرض شرائعه بالقوة ويقود المطامع العنيدة نحو الامر الواقع .

ان تاريخ العالم قائم فى الواقع على حوادث الجراءة التى غيرت من معالم الانسانية فى مختلف العصور ولن يكون حادث البرامكة إلا أحد أصداء تلك الحوادث .

ثورة ... كان من السهل اثاره عدة ثورات بمعونة اقاربه البرامكة الذين عينهم حكاما فى جميع أنحاء الامبراطورية حيث كانت الفتن مستمرة متفاوتة . ومن السهل أيضا تنظيم جيوش من المساجورين المتوسين

وإدارتها بحكمة والزحف بها في الوقت الملائم على
العاصمة بحجة قمع الفتن أو الثورة أو إزالة العقبات تلك
هي الحجة المختارة والحيلة المتبعة في شتى المؤامرات
والمكائد في إزالة العوائق والحواجز وإذن فالمقصود هو
هارون وهم العباسيون .

على أن العباسيين لم يفعلوا بدورهم خلاف ذلك
لاغتصاب العرش من الأمويين والفتك بكل من تبقى
من الأسرة الساقطة ثم أعمال سيوفهم في جميع أنحاء
الإمبراطورية لقمع الفتن . وهذا ما يسميه المؤرخ
الحريص على احترام نظريات التاريخ « إعادة الأمن إلى
نصابه في البلاد » ،

وهكذا فإن إعادة الأمن إلى نصابه معناه إخضاع
الشعوب اليائسة أو التي أوشك أن يدب اليأس فيها
ومنعها من كل مطالبة . أما وضع النظام فمعناه في هذه

الحالة رفع جعفر البرمكي على السدة الملكية في الشرق
وبذلك يحكم ولداه وهما في نفس الوقت ولدا العباسية
سلسلة العباسيين بحجة شرعية أي بصفتيهما ورثين
للخلافة .

وإنه ليس من المستغرب أن يكون جعفر قد فكر في
مشروع من هذا القبيل فتكون حياته العظمى محقة
لاشك فيها : فليكن .

على أن التاريخ قد اتهم البرامكة بالزندقة أيضا .
ماذا كانت تمثل الخلافة في نظر البرامكة الذين
اعتنقوا الاسلام منذ عهد قريب خضوعهم وذلمهم بعد
الإنكسار . ان شريعة الفاتح الظافر لا معنى لها في نظرهم
الا ارغامهم بالقوة على قبول شريعة لم يحسنوا فهمها
كما يقول المؤرخون :

كان برمك — الجيد الاول — من أسرة تؤدي منذ

أجيال وظيفية ، كاهن النار ، فى معبد بلخ النوباهار الذى
يدل اسمه أنه معبد بوذى ، نافافهارا ، .

كانت شريعة زورواستر وطقوسها المعقدة بالسحر
وأسرارها لازالت عالقة بألياف هؤلاء الايرانيين ولذلك
فان الشريعة الاسلامية البسيطة وتوحيدها
وتقشفاتها الصارمة لم تستطع أن تنتزع تماما من أعماق
صدورهم حينهم الى ماضيهم المجيد ولا حبههم للانصام
ولا كآاتهم لسقوط عظمة كسرى .

وهكذا لايبعد أن البرامكة وبصفة خاصة جعفر
كانوا يعقدون الأمل الكاذب على اعادة امبراطورية
المازنيين وتجديد شريعة زورواستر . لئن صح ذلك
لكانوا خطرا على أسرة العبّاسيين بل وعلى المجتمع
الاسلامى . لقد شغلت هذه المسألة الغامضة أكثر من
مؤرخ . هل هى حقائق أم خرافات .

لقد زعم المؤرخون . وذلك بعد سقوط تلك الأسرة
الشهيرة أنه وجدت في جميع مساكن البرامكة سرايب
خفية لا يطرقتها غيرهم . وانه كان يوجد هيكل سري
تضئ . أمامه شعلة مستديمة في اناء « نواصة » من الذهب
يؤدون أمامها سرا طقوسا دينية مجهولة ويقدمون الذبائح
التي لا نمت للاسلام بشئ . وانه لمن حسن الحظ أنهم
لم يتهموهم بالسحر والشعوذة الشيطانية وأنه ليخيل
للإنسان انه وسط مجتمع من اعضاء محاكم التفتيش وهم في
عباراتهم الملتوية غير المفهومة . أو كانت تلك الاتهامات
من مقتضيات الظروف أم هي عبادات يقصد منها ارهاق
أسياد سقطوا أم هل كان البرامكة كلهم يتظاهرون باعتناق
الاسلام لغاية في أنفسهم أم تحايلا .

معذرة كلا ثم كلا . إذ كيف يمكننا أن نصف تعلق
محمد بن خالد البرمكي بالشرعية الاسلامية الى حد التقشف

والنصوف : ومحمد هذا هو ابن وزير المنصور والبرمكي
 الوحيد الذي لم تتناول له المذبحة وكيف نمكننا أن نفسر حج
 يحيى البرمكي وأولاده إلى بيت الله الحرام مراراً متكررة
 ومن بينهم جعفر المتهم الأول بالزندقة ؟ أو كان ذلك منه
 رياء لكي لا يتهم بالحب ؟ أم كيف نفسر الصلوات التي كان
 يؤديها جنباً إلى جنب مع أمير المؤمنين في الجوامع العامة
 بل وفوق جبل عرفات المقدس في أيام الغفران . خافى
 الأقدام مكشوف في الرؤوس وعاري النفوس أمام الخالق
 الأبدى ؟ أكان ذلك رياء وخبثاً ودهاء شنيعاً يخفى وراء
 مظاهر خداعة ما يضمرونه في خبيثة نفوسهم من
 الأغراض الفظيعة الوحشية ؟

إذا صح ذلك كان البرامكة كلهم خلال الجيل الذي
 حر عليهم وهم يتعاقبون في الوزارة يمثلون بحججك دوراً
 هاماً ويتظاهرون بظاهر إسلامية خداعة مع بقائهم على

شريعتهن المازنية واتباعهم لشريعة زورواستر وتعاطيهم
السحر لا لغاية إلا العمل على قاب أسرة كانوا أول من
عزز مكاتها بمجهودهم ليحلوا محلها أسرتهن أم لاسقاط
شريعة يانعة قوية صارمة تغطي ثلثي مساحة الارض
واحلال عقيدة قديمة وشريعة سرية عتيقة فانية نسيها
العالم بأسره إلا هم وذلك خلال مائة عام بدون أية كبوة
أو هفوة أو إشارة متناقضة أو خارجة على الدين
الاسلامى فتم عليهم وبدون أى خطأ أو إهمال أو ارتكاب
هفوة ترفع عن وجوههم القناع يالهم من ممثلين مهرة
وهكذا انتظروا مائة عام وماذا عساهم قد انتظروا ليقبلوا
أسرة ويدقوا الاجراس إيذانا باعتلاء أسرة جديدة
العرش فى حين أنه قد مرت بهم مئات الظروف تمسكتهم
من تنفيذ أغراضهم ويكفى أن نذكر ماحدث فى اليوم
التالى لمقتل الهادى الذى دبرته الخيزران . وحاك حباله

يحيى البرمكى ليرفع هارون الى العرش إذا كان من أسهل الأمور على يحيى أن يتخلص من الهادى والخيزران وهارون معاً ليستولى بنفسه وأولاده على ذلك العرش الذى طالما عمل ليحتفظ به لهارون .

لقد فاه بهمة الزندقة بعض المتبردين الذين أضرت بهم الضرائب سواء أكان ذلك منهم عن ضغينة أو عن حاجة فى نفوسهم وصفعتهم الشعوب التى اضطهدوها بحقد لها عليهم وكالت لهم الاهانة كما شاءت أهواؤها . لا شك فى أن شرارة البرامكة وظلمهم للبال وقسوتهم كانت مضرب الأمثال على أن تلك الموبقات ليست إلا ردائل شائعة بين الناس وخاصة بقيادة الأمم وكبار الموظفين الجشعين والوزراء الذين خلت ضمائرهم فأطلقوا عليها ما شتم من الاسماء . أخطاء سياسية أو جشع ادليس ~~البرمكى~~ . ولكن ذلك كله لا يدل على أى حال على

وجود جريمة دينية . وهكذا عبثا يحاول المرء أن يحلل
المسألة من جميع وجوها وأطوارها فانه لا يجد مجالا
ليحكم عليهم بتهمة الزندقة التي ألصقها بهم المؤرخون
ويلقبها الخلف عبثاً ثقيلاً على كاهلهم . اذن ماذا ؟

اذن أفهموني جيداً تلك الزندقة لم تظهر وتضخم ثم
تؤيد وتراقب الا عند مظهر أحدهم وهو جعفر في
ظروف خاصة . وسواء أكان ذلك خطأ سخيفاً منه أو
انتقاماً لأنانيته التي احتقرت في أعز مالهديه وهو فتوته
ورجولته . بمظهر الرجولة وأخذ يحب ويحب الى حد
الشهوة امرأة . هي زوجه التي حملوه على القسم بعدم
الاقتراب منها بأمر الخليفة لأنها ابنة الخلفاء وأخت الخليفة
وما ذلك إلا ارضاء للخليفة . أما الزندقة . الزندقة الصحيحة
الوحيدة . اذا كان لابد من البحث عنها . فهي هذه .

أما أن يكون البرامكة قد عملوا على خلع أسيادهم

ومن ثم انشاء امبراطورية مازنية فهذا غير محتمل
وغير معقول

وأما أن يكون البرامكة . المتهمون بالزندقة كانوا
يعملون على اعادة شريعة زورواستر ومحو الاسلام
فهذا أيضا لا

وأما أن يكون جعفر البرمكى وحده بعد أن
اختلفت مطامعه وامتزجت باعتبارات غرامية . قد حاول
أن يسقط عرش الخليفة هارون ليستولى عليه ربما كان
ذلك الغرض الوحيد المعقول الذى يمكن التسليم
به . ولماذا

لا تنسوا أن هذا الخليفة كان أحب الرفاق والصديق
الحميم لجعفر البرمكى وأن هذا الخليفة سيصبح بقوة
الظروف عدواً ويرغب جعفر فى ازالة هذا العائق
والتخلص من ذلك الجلالد الذى فرض عليه فرضاً وأهانته

في صميم بدنه .

واذ ذاك لا بد لحقده أن يتجسم مخيفا مريعا ويجعل
منه خائنا ولا بد لغيرته من أن تبحث عن انتقام ذلك
الانتقام الذي تمليه غريزة الرجل المهان في بدنه والذي
لا بد له لتنفيذه من مؤامرة ليتسنى له التخلص من هارون
كما كان لا بد من مذبحة شاملة ليتخلص هارون
من جعفر .

أسرة بني العباس

٤

الاضطرابات في سوريا . ثورة في خراسان . نتائج هياج
في بغداد . هرثة بن عيان . دور زبدة السياسى
وتأثيرها . حول لعبة شطرنج . وراثة العرش . ابن زيده
ولى العهد .

هل أطلع جعفر العباسية على مشروعاته خلال لحظات
استسلامه لنشوة الغرام ؟ وهل عساها من جانبها قد انحط
عليه باللائمة أم تراها قد شجعتها ؟

كل شىء يحمل على الظن — حتى اذا فرضنا أن
العباسية قد أدركت أغراض جعفر الآئمة — أن صوت
شهوتها الحديثة المتأججة قد حملها « بغير ماشك » على أن
تخفى فى خبيثة نفسها كل اعتبارات الصراحة نحو أخيها

ذلك الآخ الذي حرمها من حقوقها الزوجية وبذلك أصبحت تمقته بقدر ما كانت فيما مضى تحبه .

وانكم لتوافقون معى على أن الأمر غير قاصر بالمرّة على الخضوع المطلق المقرون بالاحترام نحو قرار تعسفى صادر فى مثل هذه الظروف الشاذة من شخص بعيد كل البعد عن أن يكون قد انتزع من نفسه كل اعتبار مادى وشعور ثورى أو تكون نزاعاته الرئيسة وعواطفه البشرية قد تضاءلت بأكملها . خصوصا إذا كان العامل الأول فى ذلك هو امرأة سجيّنة وأن هذه المرأة فى ميعّة الصبا والشباب وأن عليها أن تختار بين الحب لرجل محبوب والاخلاص لآخ هو أحب ما فى الدنيا إليها وسواء أكان هذا الرجل خليفة فى بغداد منذ ألف عام أو رجلا عاميا فى عصرنا من سكان باريس أو لندن أو الخرطوم أو نجازاكي . فان اختبارها سيكون واحداً لن

يتغير . وسوف تفضل الرجل المحبوب سواء أ كان فظا
خشنا أو أبلها أو كان جامعا لهاتين الرذيلتين معا .

وانى أن كنت أخشى أن ابتعد بكم عن سياق الموضوع
الا أتى أقول لكم أن هذا الحادث قد ذكرنى بتفسير
عنيف ولكن دقيق قدمه لنا أحد مشاهير المحامين
الباريسيين عن اخلاص المرأة :

« من العبس أن نبحث عن يوم ينتصف فى الساعة
الرابعة عشرة فقد أخذنا كلنا درسا فى هذا الصدد فلا
توجد نساء مخلصات بين العشرين والأربعين فهناك نساء
تحب أو لا تحب ، (١)

ما هذا الا رأى كسواه من الآراء ينطبق على
موضوع العياسة تمام الانطباق . وهكذا فان تمثيها دور
عدم الاكتراث والنسب . اصبح شاقا مؤلما . والآن فانه

(١) المحامى مورو جيافيرى Moro Giafféri

لا توجد في العالم كله امرأة محبة يستعصى عليها أن تختلق
شتى الوسائل وان تقف حيال أ كذوبة لتنقذ بها من
نحبه . أما وإن وجدت فأنها لن تكون امرأة وإن
تكون عاشقة إذ أن خياتها نحو البعض تعد وفاء وبطولة
في سبيل شخص واحد وربما كان ذلك عذرها الوحيد
وتمن فداها .

أما كيف أدرك الخليفة في النهاية ما يدور في الخفاء
ويحاك في ظل عرشه وبدون علم منه فان هذا الأمر
يعد من الامور التي استعصت على المؤرخين فلم يدركوها
او يستطيعوا حلها نظراً للتكتم الشديد الذي التزمه
مؤرخو ذلك العصر في هذا الصدد سواء أ كان ذلك
تعمداً منهم أم كرها .

ان المؤرخ بيرون Perron يشير بأصبعه الى زبيدة
العظيمة ويلقى عليها التهمة

يقين انه كان يوجد نفور ظاهر بين زبيدة والعباسة
وان هذا النفور كان يفصل بينهما . فتلك الغيرة التي كانت
تشعر بها نحو امرأة لا تقل مواهبا عنها ولا جاهها وتري
أن تأثيرها على هارون كان يطغى عليها كثيرا . تلك
الغيرة قد ازدادت مع الوقت . وإن هي إلا أمر طبيعي .
فاذا سلمنا بأن الطبيعة المتكبرة المتعطشة للسيادة التي تتحلى
بها امرأة كزبيدة لا يمكن أن ترضخ أو تقبل أو تقوم بدور
ثانوى أو تتوارى تماما خصوصا اذا كان مجرى الحوادث
المخوف بالمخاطر يتطور أمام انظارها الثاقبة تطورا مقلقا
مخيفان ذلك لا يدل اطلاقا على انها كانت تضرر الايقاع
بفئة معارضة أو معادية لها . انه لمن الصعب حقا اتهام زبيدة
بالدس أو القسوة .

وعلى نقيض ذلك ، كيف يمكن ان يعزى الى زبيدة .
ابان هذه الحوادث الحاسمة ان تقف موقف المتغاضية او

ان يكون حب الغير متأصلا من نفسها الى حد كبير
إذ ان مثل هذا الموقف يتنافى تماما مع ما اشتهرت به من
الشعور السياسى الحساس كما لا ينطبق على ما امتازت به
من صفاء ذهن عجيب .

ان ما انصفت به زبيدة من رقة الشعور وطيبة القلب
وكرم المحتد لم تؤثر فيها الى حد ان تفقدها كل ميزة
بسيكولوجيه . وانه لا يمكن للمرء إلا أن يشعر بخسومة
المرأتين الغريزية وتنافر هاتين القوتين المختلفتين . انهما
لأشبه بحجر الزناد المشتعل إذا قرع صلب المنطق البارد
ولم تخفف الملابس الداخلية من حدة تلك الخسومة
بل على العكس فان شعور الاستنكار الذى نشأ عن
الحوادث المتعاقبة قد أوقفت هاتين القوتين وجها لوجه
فى ميدان يرفرف فوقه ملك الصمت الرهيب المشؤم .
كانت زبيدة أميرة جليلة كاملة محافظة على جميع تقاليد

المجد كما كانت تغار على امتيازات اسرتها . وهى فوق كل
شئ . مسلمة أصيلة كما كانت طيبة القلب رحيمة لم تزعزعا
الشهوات وتربطها بهارون عاطفة مودة هادئة متينة ان لم
تربطها به رابطة الحب أو اذا شئت فهى رابطة الواجب
والتضامن والشعور بالمسئولية السياسية . وقد أدركت
زبيدة عواقب مأساة الحب التى تمثل أمامها بجميع
اطوارها وتطوراتها اذ شعرت بمطامع البرمكى المتحفزة
وما ترمى اليه من دك صروح عرشها . فهل لم يكن من
واجبها بعد ذلك أن تعمل وتضرب .

كانت زبيدة أما لولد وان لم يكن أكبر أنجال الخليفة
ولا المفضل عنده . إلا انها كانت منذ ولادته تعتبره وريثا
وحيدا للأسرة بنى العباس سواء من ناحية هارون أو من
ناحيتها ومن ثم وريثا بغير منازع للامبراطورية والعرش
ولتقاليد العباسيين . لم تكن زبيدة سليلة العباسيين تخشى

شيئا على ابنها أو عليها من جانب أبناء هارون الآخرين
فكلهم أبناء راقصة أو أمه (١) وان كانوا من دم عباسي

(١) على أساس الشريعة الاسلامية يعتبر شرعيا ويرث بماواة كل طفل
يولد من زواج شرعى . كل طفل أو طفلة تولد من أمة شرعية مسلمة أو غير
مسلمة أو من سبية حرب . (وبعد غير شرعى أى فضل كل طفل يولد من
اجتماع غير شرعى لشخصين حريين أو كل طفل يولد من أمة بعد تحريرها)
وجميع القوانين متشابهة للأولاد الذين يرزقون لمسلم من جميع سببات الحرب
مهما كانت عقائدهن الدينية ولا يمكن انناعهن بالعدول عن ايمانهن أو اكراههن
على اعتناق الدين الاسلامى أن أولادهن فقط يعتبرون شرعا من مواليد المسلمين
. مثال ذلك الحوادث المجولة أو المعلومة لبعض سببات الحرب الشهيرات اللاتى
يأتى على ذكرهن تاريخ الصرق كسألة مازيا أو ييلتزا الشريفة البيزنطية شقيقة
الامبراطور نكفور فوكاس اثنى *Nicéphore Phocas* التى سباهها أبو الحسن
بن حمدان سيف الدولة أمير حلب فى القرن العاشر حادث شهير تسبب فى إيقاد نار
الحرب عشر سنوات وقد ذكره الشاعران المتنبي وأبو الفراس والمؤرخان البيزنطيان
ليون دياكروس و سديفوس وقد قص سيف الدولة بنفسه قصته بأبيات شعرية ظلت
خالدة وقد بقيت الاميرة البيزنطية نصرانية وأعقت ابنة من أبى الحسن سيف الدولة
وهناك حادث آخر هو حادث الاميرة « ايدا » المتساوية فى القرن الحادى عشر من
حوادث الحرب الصليبية الثانية فقد سباهها أتابك الموصل وأنجبت عماد الدين
الزنجى الشهير الذى كان ابن خالة الدوق هنرى دى ساكس . ولم ينكر الأخير
كما لم ينكر عماد الدين هذه القرابة الجرمانية التى طالما علق عليها « ا كشارد
دوراخ *Ekkard D'urach* » و « انيس دى بافير *Agnès* »

أما أبناء العباسة والبرمكى ذلك البرمكى المازوى . ذلك
البرمكى الزنديق الذى كانت تكرهه وتمقته والذى

~~~~~  
= *De Bavière* « فى مؤلفاتها . شلومبرجر . قصص الحروب الصليبية  
جزء ٢ وقد ماتت ايدا النمساوية كاثوليكية .

وقد كان لأسبانيا عدد وافر من السبيات النصرانيات أشهرهن سبية  
أبى الحسن الزجرى أمير اشيلية . « ايزابل دى هارو التى أصبحت ثريا »  
أما سلاطين آل عمات فان دماءهم المتزجة تدل على وجود سلالة بعيدة من  
الأموات أو السبيات الأجنبية والمسيحيات من بولونيا وسريات ويونانيات  
وايطاليات وهنغاريات . على أن أدعاهن الى الدهشة كانت « ايميه دى باك  
دى لاريفيه *Aimee du Bac de la Riveray* « المولودة فى جزيرة  
المارتينيك وابنة خال جوزفين باشير لاجرى زوجة نابليون الاول . فعند ما بلغت  
ايميه الثامنة عشرة من عمرها قصدت ديرا فى مدينة « نانت » فى فرنسا  
فأسرها بعض القراصن التونسيين . فأرسلها باى تونس كهدية الى السلطان  
عبد الحميد الأول فرزقت منه ابنا هو السلطان محمود الثانى واصبحت الآنسة دى  
لاريفيه السلطانة نشأه ديل وقد تحققت جوزفين من شخصيتها كما عرفها الماريشال  
سبستيانى سفير فرنسا لدى الباب العالى . وقد كان للسلطانة الفرنسية تأثير عظيم  
على عبد الحميد الأول وبعده على ابنها محمود الثانى . وقد ماتت مسيحية . واجبت  
سبيات الحرب الأموات المسيحيات دورا خفيا ولكنه دور كبير فى تاريخ الشرق  
راجع تاريخ تركيا للامارتين وفوت هامار *Von Hammer* « وغرائب  
التاريخ » للدكتور كابانيس وجورج بينج المؤرخ الانجليزى والمؤرخ المصرى  
المشهور عزيز بك خانكى فى « نفحات تاريخيه »

تساعده العباسة فانه كان يستطيع أن يستخدم جميع موارد  
الامبراطورية وأسرارها ليؤسس أسرته ولاشك في أن  
دمه الغريب اذا اعتلى عرش العرب هو الخطر الصحيح  
الوحيد المستمر الذى يهدد هارون الخليفة الحالى وابنها  
خليفة الغد .

على أن تلك الفكرة ايضا كانت فكرة فئة من كبار  
العرب كانوا يشاطرون زبدة رأى ويلتفون حولها  
ويعضدونها بمالهم من جاه ومال وعلى رأسهم هرثمة  
بن أعين .

فهل هو هرثمة بن عيان الذى أوقف الخليفة على الحاله  
بفضل ماله من مكانة خاصة لديه أم هى زبيدة وحدها ؟  
تلك نظرية تدعو الى الحيرة .

فن من المؤرخين يمكنه أن يتناول تلك الحبة القديمة  
ويغربلها وينزع عنها قشورها أو أن يرمى الحشالة بين

الرمم ويرجع الى المراجع التاريخية الماضية فيفرزها فرزا  
دقيقاً ويميز بين ما يوجد فيها من مواد كاذبة أو صحيحة ؟  
ففي ابان عام ٨٠١ شبت نيران الثورة في مرو  
وقمعت بفضل هرثمة الذي انتزعت منه عقب ذلك قيادة  
الجيوش لأسباب ظلت غامضة للغاية . ثم أرسل هرثمة  
ذلك الجندي الباسل الذي خاض حروب افريقيا وأحمد  
ثورات البرابرة ، الى سوريا على الرغم من أنه لم يكن من  
أصدقاء البرامكة ولا يقل عنهم نفوذا . ومن الغريب انه  
لم يمحض على وصوله الى سوريا الخاضعة الساكنة وقت  
طويل حتى اندلعت نيران الثورات من جديد بين الفينة  
والفينة في جميع أنحاءها حتى ليخال انها أثرت خصيصا  
لينشغل بها هرثمة ويتحول تيار اهتمامه عن العراق .  
وفي غضون ذلك هبت ثورات اخرى في مدينة  
طوس ثم في همدان وامتدت ألسنتها الى الحيرة وليس في

ذلك ما يدعو الى الدهشة فقد كانت الثورات فى ذلك العهد شائعة شيوع العملة المتداولة .

أجل ولكن الفضل البرمكى <sup>(١)</sup> حاكم بلاد العجم الذى أنيطت به مهمة قمع الثورات الجديدة . لم يحسن اتخاذ التدابير الناجعة أو أنه لم يتخذ أى إجراء فامتدت الثورات وانتشرت فى أنحاء خراسان بسرعة البرق وكانت خراسان دائماً ابدا نقطة الضعف فى امبراطورية العباسيين ومحور سياسة البرامكة أو بتعبير آخر كانت أشبه بقدر الساحرة التى تلتهب النار تحتها ويزكيها الشيطان من وقت لآخر بنفثاته .

وإذن : لماذا أبعد هرثمة وهو الجنيدى الوحيد الآمين المقدام الذى يمكن أن يعتمد عليه العباسيون .

---

(١) فضل البرمكى شقيق جعفر الأكبر وقد كان فى الوقت نفسه أخا

هارون الرشيد فى الرضاع .

بحجة اخماد فتن سوريا في حين أن هناك ثورة ، وثورة خطيرة يتسع نطاقها في خراسان وتمتد وتلتهب لتزحف حتى أبواب بغداد .

أهى خطة دبرها البرامكة أم هى من المصادفات العادية البسيطة : مصادفة ؟ فليكن . على أنها مصادفة غريبة تلك التى يسبقها أبعاد هرثمة الى سوريا في وقت حرج دقيق . بينما وميض الشقاق ونيرانه تتأجج في كل مكان وفي الوقت الذى كان يعمل فيه الفضل البرمكى على اخماد نيران الثورات في مكان لا يقاد نيران غيرها في مكان آخر كأنه في انتظار أمر طال أمد وروده .

أمر صريح يرد اليه من جعفر بالذات باشعال النار في كل مكان ليسير الى العاصمة ويلقى الشعلة في وسط البارود .

تلك اقتراضات عادية فكر فيها غيرنا وكثير غيرنا

من قبل . لا شيء أكثر من افتراض بالطبع ليتسنى به  
التوازن بين سلسلة من الحوادث الفجائية الغريبة والوقائع  
المتصلة ببعضها اتصالاً تاماً لتزيد « تهمة الخيانة العظمى »  
المعزوة الى جعفر تعقيداً . المعزوة ؟ يقينا إذ أن المؤرخين  
لا ينرون لنا الطريق كثيراً بمصاييحهم الضئيلة  
ما داموا يؤكدون خيانة جعفر دون أن يدللوا عليها أو  
يقدموا عنها أسباباً واقعية ولا أدلة مفروضة أو حقيقية .  
لا شيء . لا شيء من ذلك مطلقاً وهكذا تقف جميع  
الاستنتاجات عند حد الافتراضات بدون أى برهان  
أو دليل أو قل ما يكفي من الأدلة لجعل من البرمكي  
الجميل فريسة للجلاد .

ولقد عصر المؤرخون رؤوسهم عساهم أن  
يهتدوا الى برهان ملموس فلم تصطدم جباههم الا في زاوية  
الافتراضات المدببة الحادة ثم حذوا حذو قضاة التحقيق

الذين اذا اصطدموا بملف تعددت فيه القرائن دون أن يكون بينها أدلة قاطعة ، حفظوا القضية . وهؤلاء أيضاً حفظوا موضوع خيانة جعفر التي دعاها المؤرخ يرون « كاذبة » ضمن حوادث التاريخ غير المحدودة أو بعبارة أصح التي لا يمكن تفسيرها .

وانى لأخشى أن نحطم نحن أيضاً رؤوسنا — على غرارهم — ضد التخمينات . فنسائل نفوسنا أولاً عما اذا كانت ثورة بغداد عام ٨٠٢ تدخل ضمن الخطة التي وضعها البرامكة ليتخذوها ذريعة أو مقدمة ليحدثوا صدمة نهائية يقوضون بها صرح خلافة العباسيين من أسسه . ثم اذا كانت زبيدة قد أوقفت الخليفة . فى تلك اللحظة . على ما يساورها من المخاوف . لو قدر أن تكون هى التي أطلعت على الحقائق التي كان يجهلها وحده . ولماذا ؟



لأن عطف هارون على جعفر وثقة هارون العمياء  
بالبرامكة قد بدأت تفتت وتتضاءل منذ صيف عام ٨٠٢  
تلك حقيقة ثابتة مؤيدة بالبراهين لا افتراض ولا تخمين .  
ففى عام ٨٠٢ أُرهِقَ كاهل سكان بغداد  
بضرائب جديدة ظالمة فثاروا وزار الشعب وصخب على  
البرامكة وعلى حكمهم الذى كان يستنزف دماءهم . وخطم  
أحياء المدينة المتطرقة وأشعل النار فيها .

فبدأ يحيى البرمكى بالقاء القبض على زعماء تلك الحركة  
الائبرياء وأعمل فيهم السوط حتى لفظوا النفس الأخير .  
ثم تلاه جعفر وأمر المأجورين من الاكراد بأن يحملوا  
على الشعب الذى كان يسعى نحو قصر هارون ليطلب  
انصافه من البرامكة .

وبدأت المعركة وحى وطيسها بين مأجوري الحرس  
والشعب المغبون . وكان المأجورون يتعقبون الجماهير

ويعملون السيف فى أجسام الهاربين ثم خيم الصمت على  
صفوف الثائرين بعد أن استولى عليهم الذعر وأريقت  
دماؤهم ...

ففى ذات مساء . مساء صيف جميل . كانت الشمس قد  
القت اشعتها الاخيرة على السماء الصافية إذ كان ملاك  
الموت يتنسم ابتسامته الرهيبة ويمزج ضحكته الخيفة بدماء  
ذلك الفسق المحزن الخفيف . كانت الجثث مبعثرة على  
وجه الأرض حتى تحت أسوار قصر الخلفاء . وقفل  
جعفر عائدا الى القصر وهو على صهوة جواده وسيفه  
مساول يده . فكان يسير ظافرا شاخ الأنف رافع الرأس  
فوق تلك الأجسام الممددة بين رجال الحرس . بعد أن  
انتهى من تلك المذبحة الرهيبة ورفع عينيه . هاتان العينان  
اللتان تلمعان ببريق المطامع الجديدة — شاخصا الى نوافذ  
القصر المحكمة . عسى أن تقعا على من طبعت صورتها فى

قلبه . صورة العباسة التي لا تبارح مخيلته .

وأرعى الليل ، ليل الشرق ، سدوله على ذلك المشهد  
المخيف المرعب . وروى أديم الأرض ظمأه من دماء أبنائه  
وكنتم أنفاسه كما يفعل الفهد الذي يبحث عن فريسته  
وجالت نظراته حوله ووقعت على منظر عاره يتلألا في ظلمة  
الليل البهيم تحت ضوء الكواكب النائية الباردة .

وسرت رعشة الذعر بين أنحاء بغداد المنهكة . وتملك  
الخوف بغداد من سماع أنين الجرحى الذين لم تجهز عليهم  
أيدي المأجورين ولم تطأ أجسامهم سنابك الخيل وظلوا  
يعانون سكرات موت بطيء .

وأرعى الليل سدوله على المدينة الضاحكة نغفت  
الأصوات ولم يعد يسمع غير نجيب النساء .

وكانت بعضهن يتنقلن بين الأشلاء والذعر باد على  
وجوههن غير آبهات لأسواط الجند ولا تحذير العسس

ويبكين على تلك الجثث المتقلصة عسى أن يجدن طريقاً من  
الحياة في تلك الأعين المفتوحة وقد انطفأ نورها أو  
يسمعن نفثة . وإن كانت خافتة تتردد في تلك الصدور  
التي كانت لاتزال تختلج الى أن تدركها يد الموت الباردة  
فتهدأ هدوءها الأخير .....

وسارت غيرهن شاردات الانظار وقد جن جنونهن  
وأخذن يرددن صلوات غير مفهومة كأنهن في  
انتظار حدث عجيب خارق للطبيعة وهو حدث لن يقع .  
ووقفت غيرهن واجمات وأخذت أيديهن المضطربة  
تبحث بين أشلاء القتلى الدامية عن أحلامهن التي فتكوا بها  
وهكذا ظلت مواكب النساء تروح وتغدو الليل بطوله .  
وأرخی الليل سدوله على قصر الخلفاء حيث ظل  
الجند المأجورون ساهرين شاكي السلاح . وكانت أقدام  
الحرس تدب على الاعتاب في الداخل وصوتهم يردد نداءهم

المعهود : وحد وحد الله . فيتجاوب صدهاء في جميع الانحاء .  
ووصلت رائحة الدم الى سباع افريقيا وهى فى أقفاصها  
البرونزية بداخل الحدايق البديعة الغناء فاشترأت أعناقها  
وبدأت تزار زئيرا متواصلًا وحشيا . أما فى داخل  
القصر الساحر فكانت تجلس امرأة فى عزلة الى نفسها ...  
وكانت اصوات المدينة الجريحة المتألمة تصل اليها  
مضطربة وتختلط بأصوات الاماء اللاتى كن يرتلن فى  
احدى الحجرات النائية بعض آيات من الكتاب الكريم  
كانت هناك امرأة فى عزلة الى نفسها .... لا أنيس لها  
ولا سمير غير أفكارها الشاردة . فيما كانت تفكر يا ترى ؟  
فهل بدت على تلك الجدران المائلة أمامها بعض الرؤى  
الخيفة فأثلجتها من مكانها .

ماذا عساها تعرف من حياة الجماهير وآمالهم وبؤسهم  
وآلامهم ؟ وهى التى يهب الى خدمتها عالم بأسره فى قصر

تكتنفه الحقائق الغناء وتحيط به الأسوار المذهبة  
والأبواب الموصدة ويكتنفها الخدم والحشم والمماليك  
والحرس والأغوات والعبيد والأرقاء فيفصلون بينها  
وبين العالم الخارجى .

ان من يراها فى مثل هذا الجمود لا يفتر ثغرها عن  
اقتسامه أو زفرة ليظن انها غريبة عن كل شعور  
وحساسية . ومع ذلك فقد كانت تعيش عيشة خاصة  
يجعلها الجميع وخلعت عليها العزلة رداء من الحساسية  
لا تدركه غير النفوس الكبار ولا تصل اليه الا بعد أعوام  
من التأمل والتفكير .

كانت لا تجهل شيئاً مما يدور حولها وكانت ذاكرتها  
حادة مدهشة . فكانت لا تجهل ما يتضمنه تقرير سياسى  
أو قرار سرى أو مسعى أو دسيسة أو تاريخ أو رقم فقد  
كان قلم مخبراتها منظماً بما لا يقل عن نظام ابراهيم وأداته

تدور بأحكام متقن دقيق .

لقد فهمت ما يصبو اليه الشعب وأدركت آلامه . وفي تلك الليلة كان صوت الشعب يتصاعد اليها من مدى بعيد كأنه يستغيث استغاثة اليأس وينادى زيدة . . . . . فأرسلت زيدة معتوقياها الى الطرقات حيث يتضور الشعب بين مخالب الموت ليواسوا الجرحى ويضمدوا جراحهم ويواروا الموتى التراب وبعثت بعبيدها الى بيوت الأيتام ومساكن الأراامل البائسات ليوزعوا عليهم الصدقات ويعزوهم بأرق الالفاظ والعبارات .

وفي تلك الليلة نذرت بأن تقدم بآئنة لجميع الفتيات اللائى سقط آباؤهن تحت سيف البرامكة ، وأن تشيد الدور التى احترقت فى الاحياء الفقيرة وتأوى من خربت دورهم أو تصدعت . وفي تلك الليلة أمرت بأن تفتح أبواب مخازنها على مصراعيها ويوزع ما فيها من

قمح وحنطة . وعند الفجر سوف تغادر القصر قوافل  
تحمل الاطعمة والملابس لتوزعها على المعوزين في  
الأحياء المنكوبة وعند الفجر أيضا سوف تقف هذه  
القوافل عند جميع الابواب .

وجمدت نظرات زبيدة من غير عمد عند تلك الآية  
الحكيمة المنقوشة بالذهب في أعلى باب خدرها ، وان  
تعدوا نعمة الله لا تحصوها ، ثم انتقلت مع الانوار الى  
تلك الآية الثانية التي كانت تسطع كالنار ، وان الله شديد  
العقاب ، فكانت بمثابة نذير وانذار . أما في الخارج  
فكانت أصوات العسس لاتزال تحمل اليها ذلك النداء  
« وحد . وحد الله ، فكان لهذا النداء الطبيعي في ذلك  
المساء معنى آخر .

وبغلة نهضت زبيدة الاميرة المسلبة . كانت رافعة  
الرأس شاحبة الجبين ولكنها كانت قوية العزيمة ونادت



عبدا نوبيا <sup>(١)</sup> ضخم الجسم فوقف أمامها حاسر الرأس مشبوك الذراعين وأمرته قائلة . إذ ذهب بلغ مولاك أمير المؤمنين بأتنا سنأتى لمقابلته . ثم سارت بخطواتها المتزنة ومرت بقاعات فسيحة وهى تبعد عنها بإشارة عصيبة الأمام اللأنى برزن لملاقاتها . ومرت بالقاعات العديدة التى خلت فى ذلك المساء من كل انسان وغابت عنها نغمات القيثارة ودف الراقصات . مرت بتلك القاعات الفاخرة التى هجرتها الأصوات وخلت إلا من انين المياه المتساقطة من النافورات . وسارت بين عمد الرخام والمرمر القائم على جانبيها كأنها حرس يتأهب لتأدية التحية برفع السلاح .

وكانت ستائر الابواب الثقيلة النفيسة ترتفع أمامها ثم تسدل خلفها فتحدث حفيفا ناعما وكذلك الابواب

---

( ١ ) مسرور أغا هارون الرشيد الرهيب المشهور .

النحاسية الثقيلة الاثرية كانت تفتح أمامها ببطء كأنها  
شباك ثم تغلق فتحدث صوتا رنانا . وكان ضوء المشاعل  
ينعكس على ظل الأميرة فيزيد في حجمه حتى لقد أصبح  
كالشبح الذى يمثل الفضاء وهو ينساب بهدوء فى محازاة  
جدران بيت بنى العباس .  
وكان الخليفة واقفا شاخصا الى ذلك الظل الذى  
يقترّب منه فى هالة من النور : الملكة .

ان من النساء من لا يمكن . بأى حال من الاحوال .  
وضعن بين ذراعى رجل . أما هذه فهى من بين اللاتي  
لا يمكن وضعن الا على عرش ينحنى الرجال أمامه فهاذا  
قالت له فى تلك الخلوة وعلام أطلعتة فى تلك الساعة  
المؤلمة خلال ذلك الحوار الذى دار بينهما بغير ما شاهد  
عليهما والذى سترتب عليه اتخاذ قرارات حاسمة لـ  
غيب أهميتها على أى مؤرخ دون أن يستطيع أن يحدد

الدور الصحيح الذى لعبته زيدة

ان صدى التأنيب اذا كان هناك تأنيب أو الارشادات  
اذا كانت قد ابديت ، أو المخاوف اذا كانت قد اثرت  
أو القرارات الحاسمة اذا كانت قد اتخذت . أن صدى  
ذلك كله لن يصل الى الخارج فقد وئد خلف جدران  
الرخام السميكه ووراء تلك الابواب النحاسية والستائر  
المسدلة . ان هى الا عبارات شاردة واصداء تائهة  
تحت تلك القباب المنقوشة والسقوف المذهبة .

ماذا قالت له ونمت اليه مما يزعم الخاطر ويشير  
الشكوك فلن . ينجع فيه علاج هل أشارت له الى غرام  
العباسة أو مطامع جعفر وخيائته أو مولد ولديهما .  
والدسائس السياسية أم مخاوفها على سلامة الاسرة  
وأسباب الثورات والخطر المحدق بالدولة بسبب مطامع  
خدمه المتزايدة ليس للامراء أصدقاء وليس لهم غير نماهين

أو خدام لحظة .

لقد مزق منطق زبيدة السليم قناع الاوهام وأزال  
كل أثر للغرور الكاذب الذى تملك هارون بشجاعة  
لا تقل عن شجاعة أولئك الذين يدافعون عن العقل باسم  
العقل ليرشدوا الضالين الى صحة بعض الحقائق المخيفة  
ويهدوهم بلسان الحق الى ما وراء احلامهم من المخاوف .  
ان الانقلاب الذى أحدثته العبارات التى أحسنت  
هذه المرأة المتكبرة اختيارها لتضرب بها أوتار ذلك  
الرجل الحقود . وان كان مترددا . أو لتثير بها كبريائه .  
تلك العبارات كانت حازمة قاطعة . ما أفضع هذا الصحو  
الذى اعقب ذلك الحلم الذى كانت تعيش فيه تلك  
الشخصية المزدوجة التى طالما عبثت ولهت . لقد انهار  
ذلك كله وأصبح هباء منثورا . وتلاشت الافراح  
والمسرات أمام ثائرة ذلك الحقد فهو شنيع بشع بقدر

ما كانت الصداقة جميلة . ماذا قالت له ؟ ماذا قالت له في تلك الساعة التي تنهار فيها العروش مما جعل جبين الرجل يتقطب وتظهر عليه الآخايد وتحمل الكتابة الى تلك الشفاه الطيبة الشهوانية فتبدو كأنها جروح لا تلبث أن تقطر دما .

وما أن لاحت بواذر الفجر حتى غادر القصر رسول من قبل الخليفة يحمل رسالة سرية وأخذ ينهب الأرض على ظهر جواده ميمما وجهه شطر الشام . تلك الرسالة هي بغير شك لاستدعاء هرثمة .

...

من المحتمل أن تكون زبيدة قد أوقفت هارون على الاخطار المحدقة به . تلك الاخطار التي كانت تهدد الامبراطورية العربية والعباسيين والسلم في الشرق فلا يمكن والحالة هذه أن يعزى إلى زبيدة التحريض على

ارتكاب جريمة . فكل ما يمكن عزوه اليها هو مجرد تحذير  
هارون لصيانة عرشه وأسرته . وهي لم تفعل ذلك إلا  
بدافع الخوف على مستقبل ابنها محمد . ذلك الطفل الجميل  
الذي كانت تقوده من يده بمهارة فائقة نحو العرش .

وعلى نقيض ذلك ليس هناك أدنى شك في أن  
الخليفة وحده هو الذي وجد الوسائل الفعالة لابعاد  
تلك الاخطار . تلك الاخطار التي نشأت من ذلك  
التحالف الثلاثي الذي ابتدعه بنفسه . لا شيء إلا ليلهو  
فأثرت نتائجه التي سببها طيشه في مجرى حياته وحياة  
غيره كما اثرت ايضا في سياسة بلاده .

اننا نعلم أن العباسيين من خليفة الى خليفة . قد ورثوا  
ذلك الخضوع التام لوزرائهم البرامكة . ونعلم أن المهدي  
والده هارون . قد نخبط وحاول عبثا أن يتخلص من  
سيطرتهم على الدولة .

لقد ساعد القدر الخيزران على تعزيز سلطتهم ومكانتهم  
ويعد موت الخليفة المهدى الغامض في الوقت الذي ربما  
اختاره ليخلع عنه رداء الخضوع من سخریات التاريخ  
ومخباته .

اننا نعلم أن هارون مدين لآله وللبرامكة بوصوله الى  
عرش الشرق . وأنه مدين لهم بكثير . مدين لهم بأحب  
صلات المودة والصداقة إلى قلبه وبأكبر خيبة أمل شعر  
بها في حياته كما أنه مدين لهم بذل الوصاية التي يحاول أن  
يفسرها المؤرخ بقدر ما يستطيع ادراكه لها ويعلمها بأن  
شعور الاستقلال الذي شعر به هارون نحو الأسرة القوية  
التي كانت تسيطر على الامبراطورية بأسرها . ذلك الشعور  
هو الذي دفعه الى اتخاذ تلك القرارات الشديدة ثم خوفه  
من ضياع عرشه وكذلك الغضب ثم الغيرة ان جميع هذه  
المشاعر لهي من العوامل القوية في قرار هارون الفجائي

غير المنتظر وهو قرار يتجمل هو وحده جميع المسؤوليات  
التي تتجت عنه ويقف منها وحده أمام حكم التاريخ  
ويتحمل وحده وزر الجريمة .

أما من الوجهة السياسية فإن زوال البرامكة كان  
تحريرا للأمر وللدولة وبوجه خاص للشعب الذي كانوا  
يضطهدونه . فمقتل جعفر لا يعد من الأخطاء السياسية بل  
اقتضته مصلحة الدولة .

ان الأسباب السياسية تغتفر الجرائم من هذا النوع  
في حين أن الشرائع الأخلاقية البشرية والضمير تسميه  
جرما ...

في ذلك العهد . وفي نهاية الصيف أي بعد ثورة بغداد  
عام ٨٠٢ توالى الحوادث الحاسمة بسرعة .

فقد حدث ذات مساء في قصر الانبار أن جلس  
الخليفة وجعفر وجها لوجه يلعبان الشطرنج . ووقفت



بين الاثنين . العباسة تشاهد اللعب وجفونها مسجلة ناعسة  
وعلى شفيتها ابتسامة ناعمة .

كانت أصابع هارون تنقل الأحجار بحركات متزنة  
ويد جعفر العاشقة تداعب مترددة حجر الوزير المصنوع  
من البللور . وكانت أنامل هارون الطويلة القاسية تدير  
حركات حجارتها بطريقة يستطيع بها محاصرة حجارة  
جعفر وشل حركة لعبه ... وكانت يد جعفر العvisية  
المترددة تداعب بيأس حجر وزيره الضائع . وكان وقع  
الأحجار المتقلبة على لوحة الشطرنج يحدث صوتا أشبه  
بصوت السيوف إذا التحمت ببعضها في وسط سكون لم  
يحاول أحد من اللاعبين أن يعكر صفوه . وكان اللاعبان  
يحقدان طويلا في لوحة الشطرنج فيقيس المغلوب مدى  
استحكاماته المكشوفة ويتردد في نقل حجارتها بينما  
الغالب كان ينتظر بغير ما عجلة ويرقب بترث الحركة

الآخيرة لينقض على فريسته كالباشق !..

وجأة أنت العباسة بحركة تزعزعت لها لوحة الشطرنج  
وسقطت عليها الحجارة ، فقالت في صوت المعتذرة  
« عذراً يا مولاي »

وبغته رأى هارون في العباسة — وقد انكشفت  
لأول مرة — امرأة لم يكن يعرفها من قبل . فتلك المرأة  
الماثلة أمامه لامعة العينين ليست الأميرة العباسة وليست  
ابنة الخلفاء وليست اخته العباسة إنما هي زوجة جعفر  
البرمكي وقد وقفت تنظر الى ابن الخيزران . وتمتم القزم  
بصوته المخيف « لمن شرف اللعب يا ملك الزمان ؟ »  
فاتزع هارون خاتمه الزمرد الكبير الذي كان يحلى به  
اصبعه وقدمه الى العباسة وهو يتسم ابتسامة خفية  
« لأختي ، ... »

ودفعت العباسة غريزة خفية الى نقل ولديها من مكة

الى اليمن . فهل كان ذلك شعورا بالخوف أم على سبيل  
الحرص . إنه على كل حال حرص متأخر اذ قام هارون  
بأبحاث سرية واكتشف مخبأ ولدى العباسة . لقد عثر على  
الأدلة وهى أدلة لا مجال لتكذيبها . فهل هناك خير دليل من  
ولدى البرمكى لقد وضع يده عليهما فأزالهما من عالم الوجود .  
ثم اتنا بنجد هرثمة وقد عاد من سوريا الى  
بغداد ثم عين قائدا عاما للجيش ورجال الحرس  
المأجورين ، خففت حركة الثورات والاضطرابات .

اما هارون فقد قام بتمثيل دوره مع العباسة ومع جعفر  
بمحنة ودهاء . فلم يغير من معاملته لهما شيئا . فقد كانت  
معاملته لهذين الزوجين بالعكس أرق وأحب مما كانت  
عليه . فازداد عطفه عليهما ورقت مخاطبته وأحاديثه معهما .  
واستوفت جولاتهم ونزهاتهم في بغداد بأحسن واحب  
مما كانت عليه بعد أن انقطعت ردحا من الزمن بسبب

الاضطرابات ولا سيما بعد أن عادت إلى بغداد بهجتها  
ورونقها بعد هدوء العاصفة . وكانت جولاتهم تطول  
إلى ساعات متأخرة من الليل تحت ضوء الكواكب  
الساطعة وبين الرياض الزاهرة على ضفاف النهر الذي  
كانت مياهه تنساب هادئة صافية بين البساتين الغناء .

وعاد المهرجون إلى سابق عاداتهم فكانوا يثيرون  
الضحك بترهاتهم . وكانت نكات أبي النواس تتطاير  
كسهام من الشرر وتنتقل بين الجموع فتثير قهقهة هارون  
الذي كان يخفي مقاصده وأغراضه بخنكة ومهارة كما يفعل  
الدجالون الهنود عندما يعرضون لأعيابهم على الانظار  
بخفة ورشاقة .

وارتفع صوت أنحى العذب بأناشيده الغرامية  
فاهتزت له أنحاء القصر وأخذ السقاة من أبناء اليونان  
يملاؤن الكؤوس الذهبية بأنخر وألذ أنواع الراح .

وسافر الخليفة فجأة الى مكة وفي صحبته جعفر .  
كان ذلك في نهاية عام ٨٠٢ ولسوف تتعاقب الحوادث  
على عجل .

فقد أصدر الخليفة قرارا رسميا نشر في مكة وعين  
فيه محمدا ابن زبيدة وليا لعهد<sup>(١)</sup> فكان ذلك حرمان ابنه  
البكر عبدالله<sup>(٢)</sup> من حقوقه في وراثة العرش وارغامه على  
احترام سلطة أخيه وهو أصغر منه سنا . ولقد كان في  
الامكان أن يعتلي عبدالله العرش بعد هارون لو لم يكن  
ابن الامة الخزيرية<sup>(٣)</sup> وهذا ما جعله يفضل عليه ابن زبيدة  
الاميرة العباسية العربية والزوجة الشرعية . ولا نستطيع  
هنا أن ننكر توسط زبيدة ونفوذها مع نفوذ الحزب العربي  
الذي كان يتزعمه هرثمة ابن أعين وسهل بن ربيع .

وأصدر الخليفة مرسوما ثانييا عين فيه محمدا . ولى

---

(١) الخليفة الأمين (٢) الخليفة المأمون الشهير (٣) كان الشراكسة يدعون خازار

العهد . حاكما على العراق وسوريا وعبدالله بن الخزمية  
حاكما على الولايات الشرقية وازرييجان وخراسان .  
وعند ما آب هارون من تلك الرحلة الفجائية في  
أوائل ايام عام ٨٠٣ استقر في الانبار على ضفاف نهر  
الفرات . وكان منذ بضعة أيام عابس الوجه شاحب اللون  
بما أدهش حاشيته . ولاحظ الطبيب ابن جبريل أن الخليفة  
كان مشغول البال شارد الفكر فكان لا يشرب ولا يأكل .  
وفي يوم الجمعة الثاني قبل نهاية محرم ( ٢٦ يناير  
سنة ٨٠٣ ) عاد هارون من حفلة صيد بصحبة جعفر .  
فاستدعى اليه سرا هرثمة بن أعين ورئيس الشرطة دون  
أن يشعر كائن من كان بوجوده في القصر .

وجمع عدد من الرسل وأقسموا على عدم افشاء سر  
ماسيكلفون به من الأوامر التي ستصدر لهم فوقفوا في  
انتظار الإشارة المتفق عليها لامتطاء جيادهم وسافر الرسل

على عجل يحملون الأوامر السرية الى جميع أنحاء  
الامبراطورية الشاسعة .

واتخذت جميع الاحتياطات الواجب اتخاذها في مثل  
هذه الظروف بكل دقة واحكام ودون استثناء أقل  
التفاصيل .

وأحاط بالقصر الحراس المأجورون الذين يرأسهم  
هرثمة . وسار غيرهم من الجند لاحتلال مختلف أحياء  
المدينة ووقف غيرهم لحراسة الكبارى وأبواب المدينة  
واتخذت مثل هذه التدابير في بغداد والرقه .

واختلى الخليفة بهرثمة بن أعين ورئيس الشرطة  
والعبد مسرور ساعات طوال لقد كانوا يدرسون شيئاً  
ويضعون خطة ومع ذلك لم يشعر أحد بالمأساة التي كانت  
تحاك خيوطها في ظل القصر .

## أسرة بني العباس

٥

ليلة ٢٦ يناير سنة ٨٠٣ . نهاية حلم .

مقتل جعفر البرمكي . مذبحه البرامكة .

كل شيء كان هادئا في القصر العظيم الذي كان يمتلكه جعفر والذي كان لا يقل بذخا عن قصر الخليفة . أو بالاحرى لم تغير سرعة وقوع الحوادث من مظهر الحياة الطبيعية التي كان يقضيها ذلك الوصف . فقد كانت ردهات قصره مكتظة بالمعتاد بجموع الساعين والموظفين المغضوب عليهم الذين كانوا يلتمسون اشارة رضا ليسترجعوا مكانتهم السابقة . فمن دسائين يتصيدون الفرص ليعرضوا خدماتهم الى خونة يسترون جرمهم وراء ابتساماتهم الى متسولين يتلمسون كلمة عفو تفوه بها



شفقتا البرمكى العظيم الشأن . الى مكتبة يضعون أفلامهم  
خلف آذانهم ومخبرتهم فى زناهم ويحملون التروس  
بأيديهم . الى سعاة انهمكهم التعب وتعفرت ثيابهم اذ جاءوا  
من جميع انحاء الامبراطورية فقطعوا المسافات الشاسعة  
وأهلكوا الجياد تعباً وأشبعوها ضرباً ليحملوا الى الوزير  
فى أقرب مدى . أبناء آخر تطورات سياسته ودسائسه .

وكان البلاط يعج كالمعتاد بالصناع وتجار الجواهر  
والأسلحة والرواة والشعراء والجوالين والمتسولين  
والجواسيس ينتظرون الساعات الطوال . بل أياها بأكملها  
ليلقوا كلمة أو يبيعوا سلعة أو يعرضوا حلية غريبة أو  
يطلبوا عوناً أو يوقعوا بشخص فيهلكوه . كانت الغوغاه  
تم عن قيام منازعات حادة فكان عمالقة العبيد يتدخلون  
فى الأمر وفى أيديهم السياط فيلبسوا بها أجساد المتعنتين  
أو الملحين الذين كانوا يتنازعون شرف الوقوف عند

مرعى أنظار البرمكى أثناء مروره اذا هو مر بهم .  
وكان هبوط الليل يحمل شيئا من الهدوء الى القصر  
فتهجره تلك الجموع البشرية وتتدفق من أبوابه الى  
الطرق تتخبط في ظلماتها .

...

كل شيء كان هادئا عند البرمكى المتألق في ليل  
٢٦ يناير سنة ٨٠٣ .

وكان الشاب مضطجعا على وسائد من الدmqس الناعم  
ناعس الطرف ساجحا في عالم من الاحلام يستمع الى  
الانغام الموسيقية التى يعزفها أفراد فرقته المختارة والى  
جانبه عبد مازوى يملأ قدحا من الزبرجد برحيق ذهبي  
فكان جعفر يرفع الكأس الى شفتيه باسماء شارد الفكر عما  
يلقيه عليه مضحكة القزم الأعور من النكات المضحكة ...  
وكان لابد له أن يروى ظمأه فى ذلك المساء فى انتظار

ما يرقبه بعد لحظة قليلة ... ورويدا رويدا وضع الكأس  
من يده .

وأسند رأسه الى الوسائد وأخذ يحرق بالأزهار  
المرسومة في السقف وهو يلف حول اصبعه شراريف  
زناره الذهبية وقد كان خاليا من الخنجر اللامع في ذلك  
المساء . كان جميلا بشعره الكستنائي اللون الناعم وجبهته  
الدعماء وشفتيه النحيلتين . ولحيته المنمقة . وكان عنقه يبرز  
خلال طيات ثيابه فتيا قويا مستديرا بعض الشيء . أجل  
بعد لحظة قليلة .

أجل بعد لحظة قليلة . عند ما ينسحب الموسيقيون  
ويخلد كل شيء الى السكون تخلف تلك العمدة القائمة في  
مؤخرة القاعة يوجد باب خفي لا يعرف سر وجوده  
ولا كيفيه فتحه غير جعفر كما أنه الوحيد الذي كان يعرف  
لماذا وكيف اختفى فجأة من عالم الوجود ذلك الصانع

البيزنطى الذى اخترع هذا الباب .

لسوف يفتح هذا الباب لتدخل منه العباسية فى زى  
الامة ... بعد لحظة ستأتى العباسية ... كان لا يزال على حبه  
لها . لم يخفف الزمن — ذلك المدمر الأعظم لكل شىء —  
من حدة شعوره .

لقد ظل قلبه جامدا عهدا طويلا . أما الآن فقد كان  
يخفق حبا . وكان الحب يملأ هذا الفؤاد ويغمره فيمحو  
من حياته وذاكرته آثار لذات قديمة . لقد أصبح الآن  
يتذكر وهو الذى طالما تمتع — بتلك الملذات فى شىء من  
الاسفاف والسأم . بلى لم يعد يذكر تماما تلك الابتسامات  
التي كان يستمتع بها فيما مضى صباحا أو مساء بل وظهرها .  
تلك الابتسامات التي شغلت حيزا كبيرا من حياته الماضية  
المليئة بالغراميات ولم يعد يذكر جيدا تلك الشفاه التي  
ألهبت فيما مضى نار الشهوة الوقادة بين جوانحه وسرت

مع دمانه وكانت تمثل له شبح المثل الأعلى الذى طمحت  
اليه نفسه وإن كان قد مات وليدا . ووجوه هاتيك النساء  
اللائى قضين نخبهن فى ثياب المحظيات وهن ضاحكات .  
لقد زال عنه كل أثر لتلك الرغبة فى الاستمتاع بمحظيات  
جديدات ولقد زال كل أثر لشهوات الماضى وما تنطوى  
عليه من فسق وفحش . ودالت وجوه النساء التى  
كانت تحتل ذاكرته ولم تعد تشغل من حياته الا حيزا  
ضئيلا ولم تترك فى نفسه شيئا من الأسف أو أثرا من  
تلك المتعة التى تخلفها مناظر الصور الجميلة فى الأعصاب .  
لم يعد يرى من نافذة حليه المفتوحة سوى صورة  
ما حكم به القدر عليه وهى صورة العباسة .

لأشئ . يثير الانفعالات النفسانية أكثر مما يفاجئ .  
والعباسة مليئة بالمفاجآت ولأشئ . يثير الخواص ويحمل  
على الاندفاع أكثر من وجود الخطر . والعباسة تمثل

الخطر . الخطر ؟ وماذا عساه أن يهيم في نظر بعضهم أمثال أولئك الذين لا يعبأون بالحياة بغير مخاطرة .

إن الرجال أمثال جعفر الذين شربوا حتى الثمالة كأس الحب الساحر دون أن تخمد جذوة ظمئهم أولئك الرجال يقدمون على كل شيء ولا يروى غليلهم شيء . فجميع مستلزمات هذا الحب وما يحيط به يكاد لا يكتفى لاشباع رغبتهم وجعفر في حاجة الى العباسة والى وجودها والى نظراتها والى سماع صوتها . إنه في حاجه الى عقلها الراجح وفي حاجة الى حيلها وفي حاجة الى ذكائها والى عبقريتها . إنه في حاجة اليها كحاجته الى الهواء الذي يستنشقه .

عما قليل ستأتى بصوتها الناعم وسحرها الفتان الخفيف الرقيق .

وأخذ يحيل بأنظاره نحو الباب الخفي ... لقد كانت تأتيه من ذلك الباب وهي تحمل في كل مرة وجها جديدا :

فأحيانا كانت تأتيه مفكرة فكانت لعينها في ظل أهدابها  
نظرات قلقة بعيدة هي مزيج من الخدق والتردد الساذج  
وتارة رزينة فتعلق بصوت يملؤه الخوف على الحوادث  
التي وقعت في غيبة جعفر أو على غير علم منه . إذ أنها  
كانت خير وسيط ينقل إليه الاخبار . وتارة تأتيه صريحة فتدبر  
وتفسر وتخلق الحيل وتبتدع الحلول وتناقش الاحتياطات  
المزمع اتخاذها والاجراءات التي يجب تنفيذها بلسان  
السياسي المحنك . إذ أنها كانت بغير ما شك ابنه وامهر  
مساعديه السياسيين كما كانت أقرب مستشارى هارون  
وأكبرهم نفوذا . أجل : ولكن يحدث في بعض الأحيان  
أن يسقط القناع فجأة أمام جعفر فيجد نفسه أمام عباسة  
قد دب اليأس الى قلبها وفقدت ثباتها ورزانتها لتصبح طفلة  
تملكها التردد وفريسة تلو كها أنياب الاوهام سواء أكانت  
حقيقية أو وهمية — يائسة من استطرادها لتمثيل دور ثقيل

العبء مذعورة تعبت بها يد المخاوف . متعبة وفي غاية  
التأثر .

وأحيانا تبدو مرحلة مداعبة تهزأ من كل شيء ومن  
الجميع فتسرد الحوادث المضحكة وتقلد أصوات أصحابها  
وهيئة وحركات من تقلدهم في كثير من الطيش والخفة  
فكانت بذلك تثير عند جعفر ما طالما أثارته فيما مضى عند  
هارون عوامل الاستغراق في الضحك ولكن مع شيء  
من التجديد المستحب . ولقد ابتدعا فيما بينهما لغة خفية  
للتخاطب هي مجموعة من الاشارات بالوجه والحركات  
حتى يتسنى لهما التفاهم إذا ما كانا في حضرة الخليفة ثم إذا  
ما اختليا ببعضهما ليلهما بغير ما حرج ولا خوف .

فمن كان يظن عند رؤيتها في مثل هذا المرح الساذج  
ونضارة الوجه أن هذه الطفلة المداعبة التي لا يتعدى  
منظرها السادس عشر ريعا — هي نفس العباسة التي



طرقت باب الثلاثين . نفس العباسة التى تخوض المناقشات  
الفلسفية العويصة وتلم الماما تاما بعلم النفس . وابنة الخليفة  
المهدى المثقفة ثقافة عالية وأخت الخليفة المتكبرة التى تعد  
نظرة العطف منها بمثابة منة عظيمة خاصة .

وابتسم جعفر بهدوء... أخت الخليفة ؟ لقد خدع  
الخليفة !! ان هى الا أخت الصديق الذى لم يفارقه وهو  
الخليفة . وأخت الخليفة الذى لم يعد صديقا لأنه تمثل  
بالآلهة الذين يتمتعون بمختلف عوامل الغيرة التى لا يمكن  
ادراك كنهها ونفثها الشيطان فيهم . فخرم عليه دخول  
الجنة التى اختصها لنفسه . فليكن . ولكن جعفر وان كان  
قد ترك له جميع مظاهر جنة الآلهة هذه . قد انتقم لنفسه .  
وانه انتقم انتقاما بديعا فأخذ يتنزه فى جنة ابتكرها الرجل  
فكان أشبه بأنديميون يسير برفقة سيلينيه التى نزلت له  
خصيصا من السموات .

ولا تتخللوا بأن الآلهة <sup>(١)</sup> معصومون بأية قوة إلهية  
عن بعض الهفوات الصارخة التي ينكب بها البشر . بل  
وانهم غير محصنين ضد تحمل عواقب مساوئها العديدة .  
كان هارون على غرار زوس — معبود الاغريق  
وسيد آلهتهم — عريدا . . . ودعيا . وكان يتغزل بكثيرات  
من فتيات شقر وسمر ويفاخر بهن جهازا أمام جعفر أما  
ان كثيرات من هؤلاء النساء الشقر والسمر قد ساعدن  
الخليفة فعلا على الصعود الى جنة تلك اللذات فهذا لاشك  
فيه ولكن هناك حقيقة مؤلمة لا تدع أى مجال للشك هي أنه  
لم توجد واحدة بينهن قد أحبته لقد تظاهرن كلهن بلباقة  
بأنهن قد وقعتن فى شرك غرامه وليس فى ذلك ما يعدو  
آداب الضيافة كما أن هارون لم يصدقهن من جانبه وهو

---

(١) كلمة الآلهة . . للملوك والخلفاء هي بمعنى النأله والتكبر والتعظيم  
الذى يوجد فى النفس أحيانا وأكثر الأحيان العظمة والرصانة فى  
كل شئ . جدا وهزلا واكن . .

أيضا قد تظاهر لهم بالحب . وهذا من شيم الرجال  
وابائهم . لأن هارون لم يكن ساذجا أو  
غيا . ثم لأن المرأة التي تحب تنقل هذا الشعور عفوا  
وهارون لم يشعر بهذا الاحساس من جانبه . لقد أحسن  
بكعفر فيما مضى بعوامل جسمانية حادة وضم بين ذراعيه  
أجساما بشدة ولكنه لم يشعر بتاتا بقلب ينبض بالاشتراك  
مع قلبه ولم يشرك بتاتا نفسا مع نفسه في غمرة روحية  
كاملة . كان يشعر تماما بافلاسه الروحي من هذه الناحية  
إن لم يهتز شيء مطلقا من خبيثة نفسه ولذلك ظلت ناحية  
من حياته مجهولة غير كاملة . فهناك شيء قد نقصه دائما  
ودائما لم يستطع ادراكه . الحب شيء طالما تمناه وبعد عنه  
عبثا وشاهده وهو ينمو في حياة الغير . الحب . وهذا  
الخليفة العظيم كان يعرف نفسه على حقيقتها على الرغم  
من كل شيء . كما كان يرى شقاء الرجل المرير أمام حياته

الخواوية . وقلبه جاف ونفسه يائسة . . . .

ففى جو الأحلام المعطر كانت نغمات القيثارة والمزمار  
ترن حول جعفر أشبه برغبة الحنين .

فتمطع طويلا وضحك ضحكة هنيئة وساخرة معا ،  
وهو يفكر بأن جنة الرجل التى ابتدعها لنفسه هو جعفر  
البرمكى الكائن الفانى قد نبذت بدورها جميع الآلهة .  
وفكر مرتاحا إذ أن نفسه لم تك يائسة ولكن تغمرها  
انانية الرجل . فتلک الانانية ليست فى الواقع سوى تحد  
للقضاء . وخفض جفونه نحو العباسة التى كان يتخيلها  
أربضة بين ذراعيه .

هناك ايضا ذكريات غير هذه . هناك فترات ثورة  
بل وغضب تغلبت فيها عوامل الغيرة على العباسة .  
فتمدت عدم المحبة واعتصمت بالصمت فكان صمتها  
افعل فى النفس من شدة التأنيب والتوبيخ .

وهناك فترات حاول فيها جعفر أن يبدد سوء تفاهم  
أثارته مسألة عرضية تافهة في مخيلة العباسة فصورته  
بصورة مقلقة فكانت حججه تصطدم برفض العباسة  
القاطع وعباراته ترتطم كالأمواج على الصخور الباردة  
عند شاطئ الصمت المتعنت .

فكان غضب الشاب يشتعل إذ ذاك كلهب القش  
لتخمد في الحال تحت تأثير ألم لاذع أشبه بالآلم الذي يثيره  
الحديد الحامى إذا احتك بجسم حى وما هذا الآلم إلا خوفه  
من فقد العباسة ، فقد العباسة ! فقد العباسة ! تلك الفكرة  
كانت تساوره فتحدث عنه ألما غريبا فيتهادى تحت تأثيره  
كرجل ثمل فقد العباسة ! تلك الفكرة كانت أشبه بأصابع  
الموت المتحجرة إذا ضغطت على قلبه الحى الساخن .  
لتخنقه الى الأبد . كلاً لم يستطع الملل أن يخفف من حدة  
هذا الحب أو يحل عقده أو بعبارة أصح توجد كائنات

لا يمكن التغاضى عنها على الرغم من مرور الزمن والبون  
الشاسع الذى يفرق بينها وعلى الرغم من الظلال التى يمكن  
أن تخيم على الذكريات الساحرة . توجد كائنات يعود اليها  
المرء مدفوعا بعامل القدر الخفى الذى لا يمكن تفسيره أو  
رده وانه ليعود اليها متوسلا وقلبه مفعم بالالم .

لقد كان قلبه فى هاتيك اللحظات أشبه بالمبخرة التى  
يحركها المتسولون عند أبواب المعابد أملا منهم فى  
الحصول على الاحسان .

فلو قدر أن يكون بينكم من آدمى الحب فؤادهم فانهم  
يفهمون أكثر من سواهم بغير ما شك ما يثيره البعد أو  
الغيبه من عذاب وآلام .

كان جعفر الظامى الواقف أمام عين جف ماؤها  
ينظر الى ذلك الباب الذى لم يفتح وكانت أفكاره أشد  
مرارة من ثمار الزقوم المتسممة التى تتساقط من رياض

الجحيم ويتولى الشيطان تقديمها الى مختاره لماذا عساها  
قد تحولت عنه كالزهرة الحساسة التى ضمت أفنانها ؟ لماذا  
هربت منه كطير السنونو العاق ؟ لقد أعقبت الليالى  
ليال وخلف النهار الفجر ولسوف تمر أيام أخرى أشبه  
بالأيام الماضية فى انتظار إشارة أو نظرة رقيقة أترأها  
آتية ؟!

كان فى كل ليلة يرقب حفيف ثوبها الناعم وفى كل  
ليلة يعد الساعات التى كانت تروى وينصت بعصبية الى وقع  
الأقدام التى تقترب ثم تبتعد بهدوء . وفى كل ليلة كان الحب  
يضىء مصباح ذكرياته أمام سريره الخالى . أترأها آتية ؟  
لقد عادت . إن دموع الكواكب الذهبية استطاعت  
ان تذلل عقبات القدر . وحمل اليه النسيم نكهة ليالى الغرام التى  
سلبها من القضاء . لقد عادت بعد أيام يأس وتجربة ونضال  
وليال بغير كرى كانت الروح فيها تتخبط وتألّم تحت عذاب

توبيخ الضمير ، إن وخز الضمير لجلاد شديد البطش .  
وخفت عوامل الغضب عند جعفر كما تخف المنكبان  
إذا رفعت عنهما الاردة الثقيلة . وبدت العباسة فى النهاية  
عند حافة بابه شاحبة اللون من تأثير الآلام التى مرت  
بها وأحاطت عيناها هالة زرقاء إذ لم تذوقا طعم الرقاد  
واغرورقت أهدابها بالعبرات فحمد جعفر فى مكانه وأخذ  
ينتنفص كالنائم إذا ساورته الأحلام المزعجة وجمدت  
شرايين الحياة فى جسمه .

ومحا الأسف آثار التأنيب . وبغته حدث مالم يحدث  
من قبل بتاتا ...

إن فى الصمت لحظات تخيم عليها نشوات لا يمكن  
التعبير عنها فتلتقى عندها الأرواح . وعجز جعفر عن  
اختراق حجاب هذا الصمت السحرى الذى يعبر أحيانا  
عن وثبات القلب واندفاعه خير من الالفاظ والعبرات



فقد ذراعيه « للعباسة ! » وتعانقا صامتين مأخوذين بجنون  
العودة وإذ ذاك شعرا فجأة بالسروور يسرى في عروقهما  
والسحريغشى فؤادهما فى ظل تلك السعادة التى حملتهما بين  
أعصارها ..

...

وتاه جعفر فى أحلامه فلم يسمع صهيل جيات رجال  
الحرس الذين أحاطوا فجأة بقصره وحاصروه ولا رنين  
سلاح الجند المأجورين . لم يسمع صليل السيوف ولا  
وقعها على أعتاب العرصات ولا قعقة المها من درج سلمه  
ولا صوت الأبواب التى كانت تفتح بعنف أمام هرثة  
ابن أعين المدجج بالسلاح .

مقدار لحظة ... وقف رجلان وجها لوجه  
يتناظران وسمع جعفر البرمكى هرثة بن أعين  
يتهمه — بأمر الخليفة — بالخيانة العظمى

والزندقة (١) .

وجحظت عينا جعفر وتطاير منها الشرر ورفع  
يده عفوا الى زناره الذى كان خاليا من السلاح فى  
ذلك المساء .

« تلك مداعبة . إن أمير المؤمنين يمزح على جارى  
عادته »

على أن صوت هرثمة القاطع أدمى أناية جعفر

---

(١) بينما كان جعفر يستمع الى نغمات الموسيقى على أثر عودته الى قصره فى  
المساء رأى فجأة مسروراً كبير أغوات الخليفة وهرثمة بن أعين يدخلان  
عليه على رأس طفلة من الحراس وجذباه خارج القصر وعند ما ذهب  
الطبيب المسيحي بن جبريل الى قصر الخليفة بعد انقضاء نصف ساعة شاهد  
رأس البرمكى موضوعا فى طبق أمام أمير المؤمنين وقد كان ذلك لئلا ينادى بسقوط  
أسرة البرمكة . فقد اعتقل جميع أفرادها فى الليلة نفسها وألقوا فى السجون  
وعزل أنصارهم فى الأقاليم بأوامر مستعجلة وصودرت جميع أملاكهم ولم يستثن  
منهم إلا محمد بن خالد البرمكى . . . تاريخ العرب للمؤرخ الفرنسى هيوارت  
الجزء الثانى ص ٢٩٤ .

الثائرة بعبارات محتومة نهائية كان يلقيها متأنيا ثابتا .  
وفي أقل من لمح البصر كف عزف الموسيقى وهرب  
العازفون واختفى العبيد ولم يعد يسمع غير صوت  
مسرور الشاذ ولعناته إذ كانت تمزق حجب الصمت  
الذى أعقب اتهام هرثمة . وظل جعفر عظيما في وسط  
نكبته وسقوطه ورفع صوته المتكبر الذى لم يؤثر عليه  
الخوف ولم يرتعد ونادى اليه حرسه الخاص .  
واندفعت نحوه الأقدام ... ولكنها كانت أقدام  
جنده المأجورين وهم أولئك الذين خدموه بالامس وكان  
اليوم يعملون طوع أمر هرثمة ويغيرون على قصره .  
وأدرك المحظى . فى تلك اللحظة . ان الحظ قد فارقه  
وإدار نظراته لآخر مرة نحو الباب الخفى ... وهوى  
خنجر هرثمة بسرعة البرق على صدر البرمكى نخر صريعا  
إلى الابد عند أعتاب عرش ...

وكان الجند المأجورون يغيرون على منازل البرامكة  
المحكوم عليهم ويطاردونهم ويمزقونهم ويقتلونهم بغير  
هوادة يتبعهم شعب ينهب ويسلب .

وكان الأرض قد فغرت أفواهاها ولفظت من  
احشائها جموع شيطانية من سكان الجحيم فكتظت بهم  
الطرقات وهم ينهبون . حتى ليخال أن الجن ثملت بنشوة  
فضيعة فاتزعت بأيديها آخر آثار الجمال لتحلى بها شناعتها  
المخيفة .

وخلت الجماهير من كل ما هو إسلامي حتى ليخال  
أنها بعثت فجأة من رماد بابل الكافرة وسارت اثر الجنود  
المأجورين حتى أدركت قصر الخلفاء حيث جلس هارون  
حاسر الرأس جامد النظر يحقد في رأس وصيفه  
المقطوعة .

وارتفعت الصيحات في الخارج وزعزعت الفضاء

كاللعنات وارتفعت نيران المشاعل . وأضاءت الجدران  
بأنوارها كالخرائق حتى ليخال أن الشرر المتطاير  
والدخان المتصاعد منها يخرج من أتون هائل ينبعث  
دخانه من الارض . حيث تقوم الشيع الشيطانية  
بطقوسها الوحشية السرية . مرتفعا نحو السماء الحاقدة  
ليخفف من غضب بعض الآلهة الجهنميين الوثنيين بتلك  
الذبائح والقرابين التي لا فائدة من تقديمها !

دهماء لا حياء عندها ولا خجل تلتف مضطربة حول  
جثة جعفر بغير رأس تحت نوافذ القصر وأنظار العباسية  
الزائغة التي عرفت فيها جثة الهرمكى الجميل المشوهة وقد  
حملها الجند المأجورون على أيديهم وسعوا بها نحو  
الجسر (١)

---

(١) يقول المؤرخ بيرون أن جعفر شق على جسر بغداد وقد عرض  
رأسه في أحد أطراف الجسر وعرضت جثته في الطرف الآخر . ويدعى  
مؤرخون آخرون أن مذبحه البراكعة وقعت في الأنار على ضفاف الفرات .

إذ ذاك علت صيحة . صيحة واحدة . صيحة انزعزت  
من أحشاء معذبة وعلت على جميع الصيحات . تلك الصيحة  
الوحيدة الفذة التي دوت كأنها صوت الذعر أو نداء  
الجنون ومزقت الآذان والقلوب وظلت الى الابد ماثلة  
لجميع من سمعوها وفهموها . تلك الصيحة هي صيحة المرأة  
أمام حبها الذي ضحى به !!

وأستولت على موكب الاشقياء هزة اجرامية  
في أبشع صورها وسرت فيه ضحكة منكرة ارتعدت لها  
مفاصله كأنها رجفة الجن ازاء سقوط الوصيف وزواله  
النهائي .

إيه ! ما أفضع انشراح الجماهير إذا كان هذا الانشراح  
فسقا ورجساً من صنع الشيطان اللعين .  
فتلك الضحكات الوحشية تثلج الضمائر الشائرة .  
وتلك الاهانات لم تعد إهانات لأنها تحلى من سقوطوا

بأحسن ما تحلّهم هالات المجد . والسباب الذى يحاول  
أولاد العار أن يسيثوا به إلى احدى الذكريات ويدنسوا  
به حياة مسها الحب وغفر لها الألم ذلك السباب لا يوضع  
فوق جبين المحكوم عليه الشاحب وصمة العار ولكنه  
يكللها بهالة الشهداء .

∴

واستمر اضطهاد البرامكة فى تلك الليلة واليوم  
الذى تلاها فى جميع اعاء الامبراطورية . فسلبت قصورهم  
وحرقت وصودرت ممتلكاتهم وكنوزهم ووضعوا  
الأغلال فى أيدي نساءهم وخدمهم وعبيدهم وسبقوا  
صفوفا نحو أسواق الامبراطورية المختلفة لكي يباعوا .  
وتمكن بعضهم من الهرب متخفين فى أزياء مختلفة  
ولكنهم عرفوا فمروا بحد السيف . والذين نجوا منهم كانوا  
يسرون مهملى الثياب مضطهدين فيختفون فى الاركان

المظلمة كالحيوانات المضطهدة . وسار سواهم فى سكون  
الصحراء فتاهوا فى فيافها ولجأ غيرهم إلى شواطئ. بعيدة  
وبلاد مجهولة فأعياسهم الضنك وماتوا على قارعة الطريق  
حيث كانوا يتسولون فيمدهم المارة بالاحسان ووارى  
المجهولون جثثهم التراب فاخذوا إلى راحة الموت ..

ماذا حل بالعباسة ؟ لا يعلم أحد عنها شيئا ولم ينطق  
أحد من المؤرخين باسمها وأسدل الستار عليها إلى الأبد  
باختفاء البرامكة . لقد اختفت بدورها فى عدم الاشياء التى  
تزول كذكرى السعادات الضائعة المؤلمة ولن تعود ،



## أسرة بني العباس

### ٦

الخليفة الحاكم بأمره . صراحة عليبة أخت الرشيد .  
سؤال في منتهى الصراحة . مشروع حفر قناة السويس  
تبادل أسرى الحرب بين هرون وإمبراطور بيزنطة .  
استئناف العلاقات الدبلوماسية بين الخليفة وشارلمان .  
الهدايا . المحظية مريضة . وخزير أو كآبة . موت هارون

لم يكن هناك من يستطيع أن يناقش الطريقة المفجعة  
التي كان يلجأ إليها الحكام في العصور المتقدمة لازالة  
الأوشاب العالقة بأداة نظام الحكم لينقذوا هذا النظام  
من خطر يهدده نتيجة ضعف سياسى كانوا فى الغالب  
سببا فى خلقه وإيجاده . ويلوح على النقيض من ذلك أن  
مؤرخى تلك العصور انما كانوا يهللون لأعمال لايجرأون

على انتقادها أو اظهار فسادها .

لم يكن الحاكم المستبد الذي يتمتع بسلطة مطلقة لا ينازعه فيها منازع في حاجة الى تبرير تصرفاته . لأنه لم يك مضطرا إلى تقديم حساب عما يفعله . واذا كانت به الى جانب ذلك حاجة الى التذرع بحجة للدفاع عن نفسه فحجة المصلحة الاجتماعية أو مصلحة الدولة كانت دائما في متناول يده يلجأ اليها متى شاء لتهديئة اضطرابات ضميره اذا سلطنا جدلا بأن للحاكم الظالم المستبد ضميرا يضطرب أو فؤادا يشعر بالقلق . وهم كذا لم يكن شعور النعمة الذي كان يكنه الحاكم أحيانا بغير ما دافع ولا مبرر لبعض وزرائه ممن كانوا يستفزون سخطه . وكثيراً ما كان هذا السخط مسرحاً لخاتمة دامية . ليدهش أحداً أو يشير اهتمام احد .

لقد قال نابليون بونابرت بعد مائة قرن من ذلك

العهد . إن خمسة وتسعين في المائة من المحظوظين عند الملوك ماتوا شنقا . وهذه حقيقة لا جدال فيها وقد قدم لنا التاريخ حججا وأدلة كثيرة عليها سواء في الشرق أو في الغرب (١)

ولم يكن معظم الظالمين المستبدين بأمرهم الذين كانوا يتخلصون من ذوي الخطوة عندهم لأقل الاسباب وأتفهها ، ليثقلوا ضمائرهم بالتأنيب أولياً سفحوا على عملهم إذا ما خمدت

---

(١)

١ - روبر ديفيرو كنت اسكس وحطى الملكة اليبابات نودور وقد تأمر عليها فأعدم في عام ١٦٠١ .

٢ - هنري ديفيات : مركيز دى سان مارس وحطى الملك لويس الثالث عشر وقد تأمر بإعزاز من اسبانيا لاعلى ملك فرنسا الذى تخلى عنه بل على الكردينال ريشليو فأمر بإعدامه بتهمة الخيانة العظمى عام ١٦٤٢ .

٣ - جان ماركيز دى موناالديسكى حطى الملكة كريستين ملكة السويد وقد عملت هذه الاخيرة على اغتياله في فونتينبلو عام ١٦٥٧ فأكرهت علي مغادرة فرنسا .

ثورة غضبهم . أما هارون فقد ندم على ما اقترفت يده . وهو وإن لم يكن يتحدث عن جرمه إلا أن ذكره ظل عالقة في ذهنه لم تفارقه لحظة واحدة بدليل ما طرأ على مسلكه من الغرابة والجنون فحاجته الدائمة الى النشاط مثلاً . وهي حاجة استحوذت عليه منذ عام ٨٠٣ . أخذت تتطور إلى شغف جنوني بالثقل والأسفار . فكان لا يؤم بلداً حتى يسرع إلى مغادرتها ليترك غيرها . وهكذا كانت سرعة أسفاره ومفاجأتها أشبه ما تكون بالفرار والهرب منها بالرحيل والسفر . وكانت قراراته العنيفة وعدم استقراره النفسى وجزعه الفجائى من عزلة كان فيما مضى يسعى إليها تدل على حالة نفسية متداعية متناقضة تمزقها منازعات داخلية وهى منازعات أصبح فريستها وقلبا تمسكن من التغلب عليها .

لا شك فى أن الخليفة كان ملكاً على امبراطورية

مترامية الاطراف وقد ازال بين عشية وضحاها كل أثر  
للبرامكة من دولته . على أن هذا العاهل المطلق لتلك  
الامبراطورية الشاسعة أخذ يفقد سلطانه على أعصابه  
شيئاً فشيئاً .

فعند هارون كان الرجل الحاكم فى صراع عنيف مع  
الرجل العادى . فلم يكن هارون هو ذلك الخليفة الذى  
انزل صارم العقاب بخدم وقحين متهتكين . ولم يكن الخليفة  
هو ذلك الرجل الذى قتل الصديق . ولكنه كان ذلك  
الهارون الذى نزع عنه وشاح الملك الذى كان يمكن  
أن يستتر وراءه ويتذرع بما يتحلى به من اعدار سياسية  
قد يغتفرها التاريخ ووقف أمام ضمير — ضعيفا كان أو  
قويا — إلا أنه ضمير لا يقبل عذرا ولا تعقيا .

إن اختفاء جعفر من حياة هارون الخاصة قد خلفت  
فى نفس هذا الاخير آثار انفعالات نفسية ظاهرة من .

جرا. كبرياء ناثر أبعد أن تكون تبكيت ضمير من تأثير  
جرم قد اقترف . وقد طالما رغب هارون في أن يشير  
بينه وبين الماضي ضجة حياة جديدة صاخبة عليها تمحو من  
صورة ذكريات ماض اليم فسعى وراء حياة اللهو يستجديها  
ويسألها النسيان . على أن القرايين السخية التي كان يقدمها  
إلى إله الخمر باخوس لتحمل إلى نفسه طمأنينة زائفة أو  
على الأقل لتفقد حواسه ومشاعره لم تساعده إلا على  
النيل تدريجيا من قوة جهازه العصبي المضطرب إذ كان  
هارون يشكو الأرق .

وعند ما كان الأعياء يأخذ منه مأخذه ويقضى عليه  
أحيانا باعتزال حياة اللهو الملتهبة الصاخبة . كانت كراهيته  
للعزلة تحمل الأمل الندامى والمضحكين على الالتفاف  
حول مضجعه الذي هجرته الراحة والطمأنينة . فكان  
أبو نواس يقضى الساعات الطوال ويحاول عبثا أن

يستعرض قاموس نكاته وترهاته الذى لا ينضب لاضحاك  
من لا يضحك وكذلك « مريضه »<sup>(١)</sup> محظية هارون  
التي كان يقول عنها « إن كل ساعة تمر دون سماع مريضه  
تعد ساعات ضائعة » كانت تحاول هي أيضا أن تشعشع  
ليالى هارون المؤرقة بأعذب أغانيها ولكن على غير  
جدوى .

وفى عام ٨٠٥ بدأ هارون يتودد إلى شقيقه<sup>(٢)</sup>  
المنصور و ابراهيم فقربهما اليه وأشركما فى ملاهيـه  
وملذاته سواء بدافع الترويح عن نفسه أو بدافع التآلف  
العائلى وهو التآلف الذى نبذه عن حياته منذ وفاة جعفر  
واختفاء العباسه .

---

(١) مطربة هارون الرشيد ومحظيته وقد ذهب حتى الى الاقتران بها ويقول بعض  
المؤرخين أن المطربة التي تزوجها هارون كانت تدعى « عريب » لا « مريضه »  
(٢) ابراهيم والمنصور وقد تأمر كل منهما بدوره فى مارس سنة ٨١٦  
ونابىر سنة ٨١٧ على ابن شقيقتهما الخليفة المأمون ولكن بدون جدوى .

وفي أحد الأيام بينما كان هارون يشكو الأرق  
لشقيقته الصغرى ، عليه ، التي كان يشعر نحوها ببيل  
قوى بسبب صراحتها إذا بالأميره تفاجئه بهذا السؤال ؛  
مولاي . إني لا أراك هادئا يوما واحدا منذ أن  
ضحيت بجعفر فلائى سبب من الاسباب أمرت إذن  
بقتله ؟ .

إذ ذاك تفجرت ينابيع حزنه أو بالأحرى ألمه  
المكبوت الذى طالما حاول أن يخفيه ويتستر عليه  
وتجلت فى تلك العبارة التى ردها على سؤال شقيقته :  
— إيه يا أختاه . أى نفع يعـود عليك لو عرفت  
السبب ؟ إلا أنتى لو ساورنى الشك فى أن قيصى على علم  
به لمزقته إربا إربا

وكان هذا هو التليخ الوحيد الذى بدا من هارون  
لموت صفيه .



على أن الخليفة كان يحمل في قرارة نفسه قوة خفية من النشاط والعزيمة لن يلبث أن يبذلها قتلًا لك نفسه وأخضعها لارادته وأخذ في حل مشا كل امبراطوريته وتصريف أمورها المرتبكة .

فمنذ عام ٨٠٤ مهما بدا ذلك مدهشا . اقتتن هارون وبهر كما أفتن قبله فاتح مصر عمرو بن العاص بمشروع جرى . لم ينفذ إلا بعد ألف عام وهو مشروع حفر قناة السويس . ولكنه عدل عن فكرته بعد عام . لنفس الأسباب التي حالت بين عمرو وبين تنفيذه . فشق قناة السويس كان لا بد أن يجلب أسطول بيزنطيا الى البحر الاحمر إن عاجلا أو آجلا .

ولما كانت الحروب المستمرة بين البيزنطيين والعرب قد سببت خسائر كبيرة في الرجال بين الفريقين المتقاتلين بذل هارون — في أوائل عام ٨٠٥ جل اهتمامه لاقتداء

الاسرى العرب أو مبادلتهم مع امبراطور بيزنطة بالاسرى  
البيزنطيين . وبعد مباحثات طويلة استغرقت شهوراً  
عديدة وقع اتفاق بين الخليفة والامبراطور نيقيفور  
الأول وفي مدينة لاموس<sup>(١)</sup> الواقعة على ساحل البحر  
الايض المتوسط تمت عملية تبادل الاسرى تحت  
اشراف عبد من معاتيق هارون يدعى ابوسويلم فرج  
وبصحبته فيلق مؤلف من ١٥ ألف رجل .

وقد قال المؤرخ الفرنسى « هيوارت » أن هذه  
الجموع مكثت اربعين يوماً ولكن اثني عشر يوماً كفت  
لافتداء ثلاثة آلاف وسبعماية أسير مسلم أتى بهم  
البيزنطيون على ظهور سفنهم وهى مزدانة بأجمل الزينة  
وأروعها واعظمها تألقاً ورشاقة .

وبعد انقضاء أربعة أعوام أي في سنة ٨٠٨ اتفق

---

(١) لاموس : مدينة تقع على مسافة ٣٥ ميلاً من طرسوس .

هارون وامبراطور بيزنطة على تبادل أسرى آخرين وقد أنجز هذه العملية في هذه المرة ثابت بن نصر وهو نائب الخليفة في سوريا وقائد قواته عند تخوم الشام . وقد افتدى العرب أكثر من ألفين وخمسمائة أسير وتغنى الشعراء بمجد هارون الذي أنقذ من سجون بيزنطة بفضل جوده وسخائه أسرى لم يكن أحد يأمل في رؤيتهم وأعادهم الى دار الاسلام .

وفي عام ٨٠٦ استأنف هارون علاقاته الدبلوماسية مع شارلمان امبراطور الغرب وهي علاقات كان قد باشرها في عامي ٧٩٧ و ٨٠١ .

ويحسن بنا القول أن الخليفة لم يعمل على استئناف علاقاته مع شارلمان إلا على أثر عودة المنازعات بين البيزنطيين والعرب الذين دفعت بهم حملاتهم حتى أسوار

امور يوم<sup>(١)</sup> في وسط آسيا الصغرى ثم الى جنوب أزمير  
وكان الغرض الذي يرمى اليه هارون من وراء استئناف  
تلك العلاقات هو الايقاع بين نقطة إذ كانت تطمع دائما  
في بسط حمايتها على المسيحيين في الديار المقدسة .

ففي عام ٧٩٩ أعطى هارون امبراطور الغرب حقا  
اسميا في حماية المسيحيين المقيمين في القدس واعترف  
بهذا الحق وأيده رسميا عام ٨٠١ .

(١)

- ١ - اموريوم ، احدى مدن فريجيا القديمة وهي تقع جنوب شرق  
باسيمونت وقد ضمت فيما بعد الى اقلية غلاطية وهي تحمل اليوم اسم « سيفرى  
هيسار » الترك . ويقال انها كانت مسقط رأس اسكنا ب اليونانى « ايزوب »
- ٢ - عندما بلغ شارلمان تسامح هارون الرشيد وسعة صدره أوفد اليه  
عام ٧٩٩ مندوبا فوق العادة ليعرب للخليفة العظيم عن رغبته في أن يكون  
حامى للمسيحية في الديار المقدسة ولم يغفل شارلمان في تقديره فقد منحه  
هارون الرشيد انقب المقدس وأعطاه مقايضه مع علم القدس ( الأب دى هينو )
- ٣ - جاء في تاريخ رئيس دير « سان جال » أن الامبراطور شيد في  
عام ٨٠٠ مأوى للحجاج الفقراء في القدس ( تاريخ رهبان « سان جال » )

وقد استأنف هارون علاقاته بالغرب عام ٨٠٦  
بارسال وفد عهد اليه بأن يرفع الى الامبراطور هدايا نفحة  
وتحفاثينة لم تقع أعين الغرب على مثلها منذ عهد  
القيصرية الرومان المشهورين بالجاء والبذخ . وقد يبدو  
لنا بعض هذه الهدايا عجيبا إذ كان يشتمل على حيوانات  
نادرة أو على الاقل مجهولة في أوروبا فقد أثار مثلا  
مرور الفيلة والسباع والنمر والفهود والقردة في  
أقفاصها ذعرا حقيقيا بين سكان مدينة شارلمان الساذجين  
ولم يكتف الخليفة بارسال تلك المجموعة من الوحوش  
المفترسة بل بعث كذلك بقطع لائحصى من الاقشة  
المطرزة بالذهب والفضة والدمقس والحرائر . وآلات  
موسيقية وثريات وكؤوس ذهبية ومائة خيمة مختلفة  
الالوان من الكتان المصرى فضلا عن المنتجات الطبية  
والبخور والتوابل والروائح العطرية وأخيرا الساعة

الميكانيكية الشهيرة وهي أول ساعة من نوعها عرفت  
في أوروبا وقد بهرت هذه الساعة الامبراطور العظيم  
لدرجة أنه دعا الى بلاطه جميع أمرائه وأتباعه والاساقفة  
والقساوسة ورؤساء الاديرة لرؤية هذه الأعجوبة التي  
بعث بها الشرق ولم يشاهد الغرب مثلها <sup>(١)</sup> .

ولكن عندما وقعت أنظار علماء الدين الذين ألفوا  
ساعاتهم الرملية على هذه الميكانيكية استولى عليهم  
الذعر والجزع فجأة واجمعوا الرأي على أنها من صنع  
الوسواس الخناس .

وفي أواخر عام ٨٠٦ اثار تعسف عيسى بن علي  
والى خراسان شكايات الاهالي ومظالمهم الى حد كبير  
اضطر معه الخليفة الى استدعاء واليه على جناح السرعة

---

(١) من أقوال اجينهارد سكرتير شارلمان ومؤلف تاريخ حياته وقد عهد  
اليه لويس الأول بعد وفاة والده شارلمان بترجمة نجله لوتير في مانجمو ؟ ؟ ؟  
عام ٨٤٠ .

وان يكن البرامكة قد زالوا من عالم الوجود الا أنهم  
خلفوا وراءهم مریدین كانوا یحذون حذوهم وینسجون  
على منوالهم وعلى الرغم من ان الخليفة كان كثيرا ما یبدل  
من حکامه فی الولايات فلم تكتب ایدی الولاة الجدد  
لتخف وطأة عن اسلافهم او بطشا .

ولم ینقذ عیسی بن علی رأسه ومنصبه والجزء الا کبر  
من أسلابه الا لانه ألقى بنفسه على اقدام ملیکه مستغفرا .  
لقد أصبح هارون یغض الطرف عن أخطاء الآخرين  
لأشئ . إلا لان تغییرا خفیا بدأ یطراً على قرارة نفسه  
ویبدل من غرائزها وطباعها فكل شئ کان یثیر سأمه  
وضجره وكان یبدو مستخفا زاهدا بأعراض الحیاة تارکا  
لمن حوله من الرجال ما یطلعون الیه من کسب المال  
وطمع فی الربح .

وفی إحدى اللیالی عاودت هارون نزعة من نزعات

العرييد التي كانت تؤثر عليه فيما سلف وسرت في جسمه  
 إذ كان ثملا نشوان الى حد الذهول بصوت مريضه التي  
 تعلق بها كما يتعلق الغريق بجبل النجاة . وقد أظهر كلفه  
 وهيامه بها بمئة ملكية ولكن سرعان ما عاودته عاطفة  
 الرجولة فأسف على ما أقدم عليه . لقد حرر مريضه وأعتقها  
 فالتزمت مريضه جانب الصمت وابتعدت بعد أن اسدلت  
 النقاب على وجهها ولما افاق هارون من دهشته أدرك  
 غرض محظيته فهي لم تعد أمته بل أصبحت حرة طليقة .  
 أترى هارون قد أنى عملا طائشا احق ؟ وانه لمن المدهش  
 لو حاولنا ان نعدد الأخطاء المناقضة للعقل ومبادئ  
 الاخلاق التي ارتكبها فذلك الرجل الذي سلب شقيقته<sup>(١)</sup>

---

(١) يدعى بعض المؤرخين أن العباسة لم تزف قط الى جعفر ابرهكي زفقا  
 شرعا وأن الخليفة قرر قتل جعفر عندما اكتشف مسلك شقيقته المشين مع  
 هذا الاخير ولا سيما أنه لم يكن في استطاعته أن يزوج شقيقته من ابرهكي  
 زنديق . أما اسباب هذه المأساة فلا تزال على الرغم من ذلك غامضة كل الغموض



حقوقها الزوجية أو حال دون قيامها بواجبها . سوف  
يؤدي واجبه . ليس في إمكانه أن يأتي منكراً وهو رابط

== وأما العباسة فقد قال المؤرخون في أمر صلتها بجعفر بن يحيى إبراهيمي  
ما قالوا وذكروا أن هذه الصلة هي التي حملت الرشيد علي قتله جعفرًا وإيقاعه  
بإبرامكة كذلك كان الناس يعرفون ببل بن خلدون فلما أنشأ هو مقدمة تاريخه  
جعل هذا القول من أوهام المؤرخين وقال في سبيل ذلك : « وهيهات ذلك  
من منصب العباسة في دينها وأبوتها وجلالها وأنها بنت عبدالله بن عباس ليس  
بينها وبه إلا أربعة رجال هم أشرف الدين وعظام الملة من بعده . العباسة  
بنت محمد المهدي بن عبدالله أبي جعفر المصور بن محمد السجاد بن علي أبي الخلفاء  
بن عبدالله ترجان أقرآن بن العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم . أئمة خليفة  
أخت خليفة محفوفة بالملك العزيز وصحبة الرسول وعمومته وأمامة الملة ونور  
الوحي ومهبط الملائكة من سائر جهاتها . قريبة عهد بيداة العروة  
وسداجة الدين البعيدة عن عوائد الصرف ومرائع الفواحش . فأين يطلب  
الصون والعفاف اذا ذهب عنها أو أين توجد الفهارة والذكاء اذا فقد من  
بيتها أو كيف تلحم نسبها بجعفر بن يحيى وتدنس شرفها العربي بمولى من  
موالى الاعاجم بمسكة جده من الفرس أو بولاء جدها من عمومة الرسول  
وأشراف قريش . وغايته أن جذبت دولتهم بضبعه وبضبع أبيه واستخلصتهم  
ورقتهم الى منازل الأشراف . وكيف يسوغ للرشيد أن يصهر الى موالى

الجأش ثابت الجنان . إن الرجل ليستطيع أن يقترب  
جرما . أما الخليفة فلا يستطيع أن يرتكب فحشا وزنا .

---

== العجم على بعد همته عظم آباته ؟ ولو نظرت التأمل في ذلك نظر النصف  
لاستنكف لها عن مثله مع مولى من موالى دولتها وفي سلطان قومها واستنكره  
ولج في تكذيبه . وأين قدر العباسة والرشيد من الناس ؟ وإنما نكب البرامكة  
ما كان من استبدادهم على الدولة واحتجائهم أموال الجباية حتى كان الرشيد  
يطلب اليسير من المال فلا يصل اليه فغابوه على أمره وشاركوه على سلطانه .  
ذلك قول ابن خلدون . وما كان أولانا بما رآه وأذهبنا فيما ذهب اليه  
لولا أنه نافس المؤرخين بمشاعره وبعض عقله وراح يعتمد على فخامة اللفظ  
وزنة الأيقاع وكل ذلك ليس خليقا بأن يحو خبرا ذاع ويقطم حديثا نقي .  
وكان أولى بأبن خلدون حين ذكر العباسة شرف المنصب وعلو النسب أن  
ينظر نظرة الى الأم فهي وحدها مرجع ماعليه البنت من علو أو هوان . بل  
مرجع ماعليه الولد من بعدهمسة أو فتور عزيزة . تلك الأم التي نزع  
الرسول الامين صلى الله عليه وسلم اليها بقوله : « انا أبن العوانك من سليم »  
وكل مايتصل به الابناء من عظمة البيت وشرف الاسرة ونبل العشيرة آتعا  
يتضاد فيما يرتضعونه من أمهاتهم من لؤم وخمول . ومن أم العباسة ؟  
أليست مغنية من القيان اشتراها المهدي وكان من أمرها أن أصبحت أم  
أبنته ؟ أفى قدرة هذه أن تنسى فتاة تحفظ ما لبيتها العظيم من سمر وجلال ؟ ==

لقد أتى عملا طائشا أحق . هذا صحيح . فما عساه إذن  
أن يفعل الآن ؟ إن عنصر الرجل فيه سوف يرتكب

== وان النفس لاتظمئن لما ذكر ابن خلدون عن نكبة البرامكة فأن المسئلة  
الشعاع التي مثلها الرشيد بجثمان جعفر من تمزيقه ثلاث فلذات وصلب كل  
واحدة على باب من ابواب بغداد بعد ما كان من فرط حبه له وتقريبه منه  
تقريبا لم يكن بين أخوين أليفين - كل ذلك لا يكون إلا حين تتقد الفيرة  
وتحتاج الحفيظة ويصاب العرض وما أظن ما قال القائلون من احتجان الاموال  
ومما ألة بنى على بن ابي طالب إلا تمويها للامر وإبلاغا للعذر ولو كان ذلك  
حقا لقتل البرامكة على سواء ولم يختص واحداً بالقتل ويترك الباقي رهائن  
السجن . بل كانت أولى بالقتل يحيى ابو جعفر لأنه هو الذى استن لبنيه  
سياسة الرقى والمودة للعلويين .

وكان بيت المأمون يقوم على العلم والحكمة . وعلى المرح والدعابة  
كذلك . وكانت ابنته خديجة تجدد في أثر عمة أيها عليّة من  
ارسال الشعر في التشبيب وابتكار الفناء والتلحين . ومن قولها في خادم  
من خدم أيها .

بأنه قولين لمن ذا الرشا انقل الردف المضم الحشا  
أظرف ما كان اذا ما صحا وأملح الناس اذا ما انتمى  
وقد بنى برج حمام له ارسل فيه طائرا مرعشا  
يألتنى سكنت حماما له أو باشقا يفعل بي ما يشا  
لو لبس القوهى من رقة أرجعه القوهى أو خدشا  
==

شططا آخر لا يقل حماقة بتزوجه من مريضه .

إن الاخلاق أيها الشاب لا شبه بهيفاء يانعة تحمل  
عبئا ثقيلا من الهفوات بين طيات ضميرها وإن العقل  
قل أن يدرك ما يسمح بفعله . ومهما يكن من شيء فإن  
هارون قد تغير فهل كان ذلك منه بدافع التوبة ؟ أم بعامل  
الضجر ؟ إن الرجل الذي تملكه الضجر واستولت عليه  
الهموم قد لا يكون نادما . إن السامة التي استحوذت على  
هارون في أواخر أيامه أو بالأحرى المرض الذي حطم

---

== وحسبنا أن نقف بالنلم عند هذا الحد ونكتفي منه بأن نقول أن  
نساء بيت نبي العباس قد أخذن مأخذ الرجال من السرف والاندفاع . وما  
نريد أن نقول أنهن تجاوزن المرح والدعابة . إلى ما وراءهما من العيث والفساد  
واذا زلت هنالك قدم أو طمحت عين أو لفظ لسان فأن ذلك لا يصدع البيت  
ولا يلثم الاسرة إلا أن يقال أن طرف الحضارة ورويق العجم قد رفعا عن  
تلك البيئة كلفة الدين وخلعا عنها عذار الوقار .

( ن كتاب المرأة العربية في جاهليتها ولسلاها جزء ثالث من ذيل  
الصحيفة ٨٨ الى نصف الصحيفة ٩١ ) .

جسمه وأنهلك قواه قد دفع به الى الحد من لذات المائدة  
والتماذى فى تعاظم الخمر . فهو لم يكف منذ عام ٨٠٧ عن  
تناول الخمر فحسب بل بدأ يدعو رجال حاشيته والمقربين  
منه الى التشبه به والتزام جانب القناعة والتورع . لقد  
أصبح هارون مبشراً . فقد أخذ فجأة ينحس باللائمة على  
أبى نواس ويوجه اليه اشد عبارات اللوم بسبب سكره  
الدائم . ولكن هذا الأخير كان يرى فى أقوال الخليفة  
دعابة سمجة تساق اليه .

أجل لقد تغير هارون . فقلة اكترائه أو بالأحرى  
وهن عزيمته قد انتزعه فى عام ٨٠٧ من احضان عالم كله  
ضجيج وحركة وملذات زائلة ومسرات فانية ليرميه بين  
أحضان العزلة التى كان فيها مضى يهرب منها واصبح  
الآن يسعى اليها ولا ينعم إلا فى ظلها . فما هو ذا يتنزه  
وحيدا فى ظلال اشجار السرو فى الرقة وفى فياة كرومه

فى الرىع . وها هو ذا يقضى الساعات الطوال . وحيدا فى مقصورات المرمر المنقوش المقامة على ضفاف الفرات لا أنيس له ولا جليس فيحدق فى لجين المياه المترقرة وهى تنساب تحت نظراته كما لو كان يرجو أن يسمع فى خيرها صدى قهقهة الماضى ورنه صوت العباسة ونغماته المستحبة العذبة . ها هو ذا يسير وحيداً يتهادى بين شجيرات الورد فى حدائقه الغناء بمدينة الأنبار حيث كانت تنبعث فى صدره . عند كل منعطف من منعطفاتها . ذكرى تضحية الظالم لجعفر وتأثيرها الأليم . لم تجعل العزلة منه رجلا حكيما بل صيرته شيخا وشيخا هرما خط الشيب شعره قبل أوانه .

وفى عام ٨٠٧ أدى هارون فريضة الحج ولم يكن يصحبه إلا عبيد قلائل أعتقهم فى عرفات وكان قد تعود فى كل سنة أن يخرج إلى الحج يحف به أفراد بيته

وزجال حاشيته وحشمه . وقد شاهد صحبه القلائل  
الخليفة العظيم وهو يبكي فرفرف عليهم سكون رهيب .

...

وعند عودته إلى بغداد بلغته أنباء سيئة فقد اضطرب  
الافق في خراسان من جديد إذ عاودته الفتن ولم تلبث  
نيران الثورة أن اندلعت فيه من أقصاه إلى أقصاه فقد  
اتفق شعب خراسان المسلح مع القبائل التركية والتف  
حول رافع بن الليث وهو من سلالة حاكم أموى  
سابق يدعى نصر بن سيار ونادى به ملكا فتخرج مركز  
عيسى بن على حاكم هارون وازداد تخرجاً على تخرج :  
لقد كان ضميره مثقلاً بالجرائم والأخطاء ولو أنه استطاع  
أن يدلل على ما ارتكبه بما لديه من الأساليب والحجج إلا  
أن القوات كانت تعوزه ليدفع عنه شر عواقبها . وسار  
رافع بن الليث على رأس جيش أغلبه من التركمان

واشتبك مع عيسى بن علي في معركة ضروس بجوار مرو  
وهزمه شر هزيمة ثم قتله وأوشكت الحالة أن تزداد تفاقمًا  
لو لم يكن هناك من يعالجها بحزم وعزم .

ففي عام ٨٠٨ بادر الخليفة بارسال نجله عبد الله .  
وهو يحمل لقب أمير خراسان على رأس جيش جرار  
مؤلف من ثلاثين ألف رجل إلى مرو . وقد قال هارون  
إلى هذا الشاب الرزين الشاقب النظرات الذي كان يلس  
فيه عزيمة لا تقبل ويرى فيه مجد الغد : لسوف تضرب  
للعالم مثلاً عظيماً من بعدى .

وعلى أثر وصول الامداد من سوريا بعد بضعة أشهر  
سار هارون إلى خراسان على رأس الجيش الرئيسي  
يصحبه نجله محمد ولى عهد الامبراطورية .

ولكن هارون مرض حال وصوله الى خراسان إذ  
أصيب بداء مجهول لم يتبين المؤرخون سره وهو داء عضال



استنفد قوى جسمه المنهك . وفى اليوم الثالث من شهر  
جماد الثانى عام ١٩٣ — ٢٤ مارس سنة ٨٠٩ توفى  
الخليفة العظيم — ويحتمل أن تكون وفاته بالشلل . فى  
مدينة طوس وهو فى الخامسة والاربعين من عمره بعد  
أن ذاق رحيق موت بطلء مؤلم حتى الثمالة .





# فهرست

صفحة

٣

## أسرة بني العباس

١

حروب المبادئ - العلويون - الدعوة العباسية -  
خاتمة الامويين وانهيارهم - أسرة العباسيين - الخليفة المصور  
- تأسيس بغداد - الوزراء البراكمة - اصطباغ الأمباطورية  
بالصبغة الأيرانية - المالية والبوليس السياسى والضرائب -  
السفراء الاجانب والمؤرخون - الخليفة المهدي - الدسائس -  
الخيزران - المهادي واغتياله - فجر عهد هارون الرشيد .

٥٢

## أسرة بني العباس

٥٣

٢

التجارة والتجار - الاسواق والحانات والحانات «الفنادق»  
الخليفة المتنكر والخليفة المتجول - الشعراء السفون - علماء  
العرب ومدارس بغداد - ولائم هارون - الراقصات والفوانى -  
السفارات والقنص والاستعراض - زبيدة الاميرة المسلمة .

٩٣

## أسرة بنی العباس

۳

تقوى زبدة وعظمتها - العباسة أخت الخليفة - إحدى  
حیل هاروت الرشید - زواج عنری باکراه بن جمفر  
البرمکی والعباسة - تحالف ثلاثی غریب - مفاجأة - قسوة  
القدر - طمع البرامكة - شك الزندقة .

۱۳۱

## أسرة بنی العباس

۱۳۲

۴

الاضطرابات فی سوريا - ثورة فی خراسان - نتائج  
هاج فی بغداد - هرثمة بن عیان - دور زبدة السیاسی  
وتأثیرها - حول لعبة شطرنج - وراثۃ العرش - ابن زبدة  
ولی العهد .

۱۶۹

## أسرة بنی العباس

۱۷۰

۵

لیلة ۲۶ ینایر سنة ۸۰۳ - نهاية حلم - مقتل جمفر  
البرمکی - مذبحۃ البرامكة .

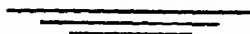
۱۹۴

# أسرة بني العباس

٦

- الخليفة الحاكم بأمره - صراحة عليه أخت الرشيد -
- سؤال في متهى الصراحة - مشروع حفر قناة السويس -
- تبادل أسرى الحرب بين هارون وامبراطور بيزنطة -
- استئناف العلاقات الدبلوماسية بين الخليفة وشرلمان -
- الهدايا - المحظية مريضه - وخز ضمير أو كتابة - موت هارون .

٢١٩







الثلث ٢٥ قرشاً